مقياس الأنساق

عمل الأستاذ غوزي مصطفى

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان –

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

شعبة الفلسفة

عنوان الماستر : فلسفة غربية حديثة و معاصرة.

السّداسي : الأوّل

اسم المادة : الأنساق الفلسفية الحديثة الجزء الأول.

الرصيد: 05

المعامل: 03.

العمل : من قبل الأستاذ غوزي مصطفى

أهداف التّعليم:

أولا : إدراك الطالب لأهمية و دور الأنساق الفلسفية الحديثة في بناء رؤية تصويرية جديدة للعالم و الإنسان الغربي.

ثانيا: إدراك الطالب لمحورية الأنساق الفلسفية الحديثة في الانتقال المعرفي من الفلسفة المدرسية إلى الفلسفية المعاصرة.

ثالثا: إكساب الطالب روحا نقدية.

المعارف المسبقة المطلوبة: أن يكون الطالب مطّلعا على أهم نماذج الفلسفات السّابقة من شرقية، و يونانية، و وسطية.

محتوى المادة:

1- العقلانية:

أ- ديكارت

ب- سبينوزا

2- التجريبية:

أ- جون لوك

ب- دافيد هيوم

طريقة التقييم: مراقبة مستمرة و امتحان.

قبل الولوج فالحديث عن الأنساق الفلسفية الحديثة،قد يكون من المفيد منهجيا أن نطرح أسئلة من خلالها نُثبّت معالم الطّريق، معالم تتكفل برسم حدود لموضوعنا ،تتشكّل عقب ذلك و نتيجة لذلك

صورة في الذهن تأتي له إتيانا مباشرا، فتلزمه أن يتذكرها في كل حين، و حينئذ لا مناص له إلا أن يقترح إجابات تملأ الصورة وجودا و حركية، حتى و إنْ كانت هذه الإجابات مؤقتة غير تامة، و لربما كانت مطلقة في ظرفيتها كاملة في نقصها، و السؤال الأول الذي يتبادر للذهن و نحن بصدد مقاربة موضوع الأنساق الفلسفية الحديثة هو ما هي الفلسفة؟ أما السؤال الصنو فما هو النسق؟ أمّا السؤال الثاني فهو هل كل فلسفة أو مذهب فلسفي هو بالضرورة مذهب يتمظهر بمقتضى نسقية معينة قطعا، أم على العكس من ذلك كل فلسفة حقا تستدعي حتما مجافاة أيّة نسقية مهما كانت قوتها و جدارتها؟

هناك الكثير من الإجابات بخصوص المقصود بالفلسفة و ماهيتها و التي حاولت أنْ تُميط اللثام عن هذا السؤال الجوهري، كأني به المفتاح الذي من خلاله تفتح أبواب الفلسفة؛ و في هذه السانحة نُقدم إجابة لأحد الفلاسفة الذي أحبّ الفلسفة حبًّا جما، و أفنى عمره محاولا أنْ يبرز هذا النشاط الفكري في أبهى صورة و أجمل حُلة و في نهار مشمس يبعث على الفرح و الحبور؛ و أعني به الفيلسوف "جيل دولوز"[1] ، في مستهل كتابه الموسوم ب: " ما هي الفلسفة؟" و الذي ألفه في آخر العمر قبل أن يضع حدا لحياته،كتبه بالتعاون مع صديقه "فليكس غيتاري"[2] . جاء في مقدمة الكتاب ما معناه:" لعلنا لن نتمكن من طرح السؤال: ما هي الفلسفة إلا آجلا، حينما تُقبل الشيخوخة و ساعة التحدث بكيفية ملموسة، و قد قلّ زاد السؤال، حينئذ يطرح السؤال و نحن في حالة توتر خفي، و قد عسعس الليل، تلاشى الالتماس و غاب الاسترفاد، في عهد قد مضى، كان يُطرح السؤال بإلحاح، إلا أنّه كان طرحا فجا مباشرا أو مواربا، قد استبدت به السطحية و التعميم. و كنّا نُبرّزُه متحكمين فيه عابرين به، غير مُتيمين به. كنا طائشين كفاية، قد تمكنت منا رغبة الإنشاء الفلسفي"[3] يظهر لنا من خلال هذا القول أنّ الفيلسوف "جيل دولوز" أيقن بعد مضي ردحا من الدهر و هو منهمك في التفكير الفلسفي و الإنتاج الفكري، أنّ طرح السؤال الجوهري :" ما هي الفلسفة ؟" يستدعي شروط قبلية تحظى بنعت المثالية، نُزهت من كلّ غرض شخصي و تخلصت من كل المنافع الذاتية القريبة الموهمة، فخلصت قدراته الفكرية و صفت الصفاء الكلي. بعبارة أخرى السؤال يتطلب تواجد

---

[1] - فيلسوف فرنسي ولد في 18 يناير 1925 و توفي في 04 نوفمبر 1995 من مؤلفاته منطق الإحساس و الصورة الحركة- الصورة الزمن.

[2] -عالم نفس و فيلسوف فرنسي و لد في 30 مارس 1930 و توفي في 29 أوت 1992 من مؤلفاته خطوط الهرب و كافكا مع جيل دولوز.

[3] - Gilles Deleuze, Félix Guattari. Qu'est-ce que la philosophie ? Les éditions de Minuit, 1991 /2005,Paris- France P07. ترجمة شخصية

شخص بموصفات الصوفي العارف، الذي لا يرجو و لا يقصد إلا المعرفة في ذاتها. و لكي يؤكد على صحة ما طرحه يُقدم بيان لحيثيات طرح السؤال زمن ما قبل بلوغ مرحلة الشيخوخة، حيث يكون الإقدام إقدام الغازي الذي ينشد الغنيمة و التلذذ بها.

إنْ سلمنا بصحة ما جاء أعلاه و ظهر لنا أن ما توصل إليه "جيل دولوز" معبر عن صواب ما، فإنّه لا يسعنا و الحال هذا، سوى التحرّك باتجاه الموضوع و نشر طياته، و نقصد بالموضوع الأنساق الفلسفية الحديثة، لكن قبل التطرق و الولوج إلى اللبّ، يستحسن و يكون من الأفيد إلى أنْ نضبط مصطلح نسق بالمفرد أو أنساق بالجمع، كما فعلنا مع مصطلح الفلسفة آنفا، و كما جرت العادة، فما الذي نعنيه بالنسق الفلسفي؟

للإجابة على هذا المشكل الفلسفي ملت و اخترت إجابة لأحد الفلاسفة المعاصرين الفرنسيين و هو الفيلسوف " جاك بوفراس"[1] و الذي اهتم بهذه المسألة أيما اهتمام، حيث خصص 13 محاضرة تقارب الموضوع و تدرسه من أكثر من جانب، قدّمها للطلاب و المهتمين بالمدرسة الفرنسية أو ما يسمى بالكوليج دو فرانس، المؤسسة العلمية العتيقة و المرموقة، و كانت مناسبة لتهدى هذه المحاضرات إلى روح أستاذ بوفراس المتوفى "جول فيلمان"[2] ؛ ويجب الإشارة أنّه علاوة إلى إشادة التلميذ يقدم "جاك بوفراس" إشادة أخرى و تنويه بمقام الأستاذ من قبل زميل الأستاذ "جول فيلمان" لسنوات طويلة بالكوليج دو فرانس، و نقصد المفكر "بيار بورديو" الذي كان قريبا منه و علم قدره العلمي، حتى وصفه بالمدافع عن شرف الفلسفة، و هذه العبارة ليست بالهينة، خاصة عندما يقولها مفكر في مقام "بورديو" و المعروف انتقاده اللاذع للفلسفة و الفلاسفة. يعترف في المحاضرة الأولى بجسامة الموضوع و خطورته، فتعدد الأنساق الفلسفية و الذي يعتبره الكثير من الفلاسفة أساسي و جوهري و خاصية مميزة للفلسفة، يثير في أذهان البعض أسئلة شتى هي التي تؤطر المحاضرات التي سوف يقدمها من بينها أو من أهمها هل يمكن الحديث عن انطباق مصطلح الحقيقة مع الفلسفة أو إن شئت هل يمكن القول أن الفلسفة أو الفلسفات بصفة عامة تحتمل الصدق أو الصحة. في نظر الفيلسوف "جاك بوفراس" فإن التساؤل هذا غير متفق عليه من قبل جميع الفلاسفة، فالبعض يرى أنّ الفلسفة ميدان

---

[1] هو فلافيان ألبير بوفراس ولد في 20 أوت 1940 فيلسوف فرنسي متأثر بالفلسفة التحليلية من مؤلفاته الكلمة البائسة

[2] و لد في 15 فبراير 1920 و توفي في 16 يناير 2001 فيلسوف فرنسي عقلاني و ابستمولوجي من مؤلفاته فلسفة الجبر

خاص يتم فيه البحث عن الحقيقة و إن كان في الواقع لا وجود لحقيقة أو حقائق محل اتفاق بين جمهور الفلاسفة، لكن لا ينبغي أن يدفعنا هذا الأمر إلى الظن بأنّ الفلسفة عديمة المعنى. أما عن مشكلة نسقية الفلسفة من عدمها أو بصيغة أخرى هل يمكن للفلسفة أن تكون نسقية و هل ينبغي لها أن تكون كذلك؟ -و هذا الذي يهمنا نحن- فيرى أيضا "جاك بوفراس" أن الأمر محل اختلاف بين الفلاسفة؛ فالبعض يرى أنّ الفلسفة تتشكل و تبنى وفق صورة نسقية، أمّا البعض الآخر يذهب مذهبا مغايرا، حيث يرى أنّ الفلسفة بالماهية مناهضة للنسقية. السؤال الثالث هل توجد إمكانية للتوفيق بين الأنساق الفلسفية المتعددة و المتعارضة و حتى المتصارعة؟ السؤال الرابع: فلسفة العلوم و الحس المشترك؟ السؤال الخامس: هل وجدت المشكلات الفلسفية لتحل أم لا؟ السؤال السادس: تاريخ الفلسفة، السؤال السابع: الظاهر و الواقع و الفرق بينهما؟ السؤال الثامن: ما هي الكيفية و التي من خلالها نختار نسق من الأنساق الفلسفية المتعددة و المتباينة و هل ينبغي نختار أصلا؟ يتحفظ فلاسفة حول مشروعية هذا التساؤل ، فاختيار نسق فلسفي دون نسق فلسفي آخر، هو أشبه في نظر بعض الفلاسفة كالفيلسوف "شارل رونفيه"[1] باختيار عقيدة دينية دون عقيدة دينية أخرى. و القليل من الفلاسفة من قدّم إجابة حول معقولية من عدم معقولية هذا الاختيار. السؤال التاسع: هل يمكن أن نقيم مقارنة بين الأنساق الفلسفية، تقوم على أسس عقلانية أم الاختيار يتم وفق معايير ذاتية ؟ السؤال العاشر: هل ننتظر من العلم بصفته وسيط محايد و في بعض الحالات إلزامنا أن نختار فنختار فلسفة العلوم؟ بحسب أستاذ "جاك بوفراس" "جول فيلمان" لا يمكن للعلم بأي حال من الأحوال أن يكون حكما في عملية الاختيار. السؤال الحادي عشر: علاقة المنهج الأكسيوماتي بالفلسفة؟ ..

بخصوص مشكل تعدد الأنساق الفلسفية يذكر "جاك بوفراس" في مستهل محاضرته الأولى أن مسألة التعددية في نظر أستاذه "جول فيلمان" نابعة من صلب التفلسف و معبرة عن جوهرها، فالفلسفة تأخذ عنده أي عند "جول فيلمان" شكل خاص فهي محاولة بناء وتصنيف عقلاني و نظرية نسقية للأنساق الفلسفية، و الملاحظة الأولى التي تتبادر للذهن بالنسبة للفيلسوف "جاك بوفراس" تتمثل في الموقف الذي يتبناه الفلاسفة إزاء مشكل النسقية التي قد تميّز الأنساق الفلسفية،فهؤلاء يتبنون موقفا ازدواجيا،من جانب فإنّ الشكل التعبيري العادي للفلسفة يتم و ينجز عبر نسق ما، و الفلاسفة الكبار هم بناة أنساق، و بحسب رؤية ما، عدم قدرة فيلسوف على بناء نسق فلسفي،

[1] - فيلسوف فرنسي من مواليد 01 يناير 1815 و توفي 01 سبتمبر 1903.

مؤشر على انحطاطه الفكري و ضعفه. و من جانب آخر، هناك من يرى أنّ الفيلسوف الأصيل يمتنع من الإقدام على بناء نسق و الفلاسفة الحقيقيون أمثال الفيلسوف الرمز "سقراط" أبى أن يخط حرفا. بناء على ما تقدم يطرح "بوفراس" المشكل التالي: قطعا هناك حقائق، لكن ما الضامن أنْ تكون هذه الحقائق مرتبة الترتيب النسقي، و مصنّفة التصنيف العقلاني؟ ثم هل يمكن لحقائق متعارضة أن تنخرط في نسق؟

يوضح "جاك بوفراس" مُستعينا في ذلك بالمفكر الفرنسي ب" بول لوي كوريه"[1] الذي تحدث عن النسق في مجال آخر (الأدب) غير المجال الفلسفي، طبّقه "بوفراس" على الفلسفة حيث اعتبر النسق في الفلسفة لا يعني الشيء الكثير، فهو ليس حقيقيا ، إنّما الأفكار التي يحويها هي التي تستحوذ على الأهمية و القيمة، و عليه فإن النسق هو بمثابة القارب الذي يحمل حقائق؛ و إنْ قَبِلنا بهذا الأمر، فإنّه من الناحية المنطقية يمكن التسليم بأنّ جميع الحقائق التي تحملها جميع الأنساق و على الرغم من تعارضها حقيقية أو صحيحة، لأنّه إذا كان لدينا مجموعة من القضايا الصحيحة، حينئذ لا قضية من هذه القضايا هي نفي لقضية أخرى، فالنفي قضية صحيحة لن يكون إلا قضية خاطئة؛ و لكن و في الوقت ذاته و عندما يستعمل هذا النسق أو ذاك لبلوغ الحقائق التي يحويها أو التي يُفترض أنه يحويها يبدو أنّه يصبح غير مجد أو لا فائدة ترجى منه و يبدو أنّه ينسى.

و لكن الأمر سيختلف تماما في نظر " جاك بوفراس" إنْ تمثلنا الأنساق الفلسفي على أنها أكسيومائية تقوم على مبادئ أولية لكل نسق مبادئه و بالتالي لا مجال لتطابق بين الأنساق الفلسفية، يشير الفيلسوف أنّ هذا النوع من التصور يتبناه أستاذه "جول فيلمان"، هذا النوع من التصور يزيح أي محاولة توفيق بين الأنساق من جهة و أي محاولة توفيق بين هذه الأنساق و الحسّ المشترك. و لأكثر توضيح فإنّ كل نسق من الأنساق الفلسفية تقوم على جملة من الأكسيومات المعينة، تسمح بعد ذلك أن يقدم المرء على عملية اختيار، و لكن هل توجد معايير موضوعية ضامنة للذي يختار أنّه اختار المناسب أي الحقيقي، يلاحظ "جاك بوفراس" أنّ هذا الاختيار قد يتم وفق دواعي ذاتية محضة لا تم بصلة بالمعقولية، مع العلم أنّ صاحب نسق أو متبني لهذا النسق يعتبر الحقائق المؤلفة للنسق المقابل أوهام لا غير. أمام تعدد الأنساق فإنّ "جول فيلمان" يرى أن الاختيار لأي نسق لا يمكن أن يتم إلا بالتضحية، فالذي يختار نسقا دون نسق يفعل ذلك عن وعي و عن قبول فرضياته

[1] - أديب فرنسي ساخر و لد يوم 04 يناير 1772 بباريس و توفي مقتولا يوم 10 أبريل 1825 من مؤلفاته رسائل من فرنسا و إيطاليا.

المؤسسة. و للتمثيل على عدم إمكانية الجمع أو تركيب أو حتى التطابق بين نسقين فلسفيين يقدم "جول فيلمان" تقابلا بين نسق "أرسطو" و نسق "ديودور"[1] و تجسيدا لهما يطرح مسألة الجبر و الاختيار، و كيف تختلف الرؤية" أرسطو" التي هي مع الاختيار و رؤية "ديودور" التي هي مع الجبر. يشير "بوفراس" إلى أنّ أستاذه "جول فيلمان" يستخدم معضلة "ديودور" كمبدأ مؤسس للفلسفة الإغريقية بل يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا و اعتبار المعضلة مبدأ مؤسس لكل الفلسفة الأخلاقية، فهذه المعضلة -aporie أو الإحراج يُسيطر و سيطر على فلسفة الفعل مثلما سيطرت و تُسيطر مفارقات " زينون"[2] على فلسفة الرياضيات و فلسفة الطبيعة . يرى "جول فيلمان" أنه لا ينبغي أن نمني النفس بأي حال من الأحوال معتبرين أن تصنيفا ما للأنساق الفلسفية تتمخض عنه فلسفة هي

---

[1] - فيلسوف إغريقي ينتمي إلى المدرسة الميغارية (مدرسة فلسفية إغريقية أسسها الفيلسوف إقليدس الميغاري ما بين القرن الخامس و الرابع ما قبل الميلاد، ينتسب أعضاء هذه المدرسة فكريا إلى تعاليم الفيلسوف سقراط) توفي حوالي 284 ق.م. اشتهر هذا الفيلسوف بالحجاج المسيطر أو السيّد dominateur- الذي ينفي على الأقل على المستوى الدلالي الأحداث المستقبلية، يتكون هذا الحجاج من قضايا الثلاث – نقلا عن "إبيكت" الفيلسوف الإغريقي الروماني و لد حوالي 55م توفي حوالي 135م ينتمي إلى المدرسة الرواقية التي أسسها زينون الرواقي صاحب نظرية المدينة الكونية، اسمه يعني الخادم فهو عبد قد حرر فيما بعد. لم يكتب شيء إنما تلميذه" أريان" هو الذي قام بتحرير أفكاره- هي : القضية الأولى: تنص على أنّ كلّ قضية صحيحة متعلقة بالماضي، هي ضرورية؛ القضية الثانية: تنص على أنّ المستقبل لا يتبع منطقيا الممكن؛ القضية الثالثة: تنص على أنّ ما هو ممكن لا يكون حاليا صحيحا و لا يمكن أنْ يكون كذلك مستقبلا القضية الرابعة و التي تنص على أنّ الذي هو كائن لا يمكن أنْ لا يكون أثناء كينونته أو تواجده يسمى جاك بوفراس القضية الرابعة بمبدأ الضرورة النسبي، وهذه إضافة منه حيث يمكن التعبير عن السالف بصيغة: اللارجعة، فالذي حدث في الماضي أبرم حدوثه و الانساق، لا يمكن استنتاج منطقيا من الممكن المستحيل و العكس صحيح،الحدث يمكن للممكن أن لا يتحقق إطلاقا،و أخيرا السكون أو الثبات، و قد جاء ذكره أعلاه . يلاحظ "إبيكت" أنّ "ديودور" يستنج خطأ القضية 3 ، خطأ القضية الأولى يستنتجه الفيلسوف "كليانثس" – حوالي 301 إلى 232 أو 252 ق.م فيلسوف رواقي- خطأ القضية الثانية يستنتجه الفيلسوف "خريسيبوس" هو فيلسوف إغريقي عاش ما بين 280- 206 تقريبا، فيلسوف رواقي- .

[2] - و لد حوالي 490 ق.م و توفي حوالي 430 ق.م من إيليا جنوب إيطاليا تلميذ و رفيق الفيلسوف "بارمنيدس" اشتهر بطرحه لعدد من المفارقات تقصد إلي تبيان استحالة الحركة و إثبات السكون (مفارقة التفريع أو الانشطار الثنائي dichotomie و التي تنص على أنّ المتحرك للذهاب من أ نحو ج عليه الوصول أولا إلى ب، الموجودة بين أ و ج و لكن قبل الوصول إلى ب، عليه الوصول إلى ب' و الموجودة بين أ و ب و هكذا دواليك في النهاية لا يمكن للمتحرك الوصول ج في زمن محدد. مفارقة أخيل – بطل أسطوري اشتهر بركضه السريع و شجاعته - و السلحفاة و التي تنص على أن أخيل إن كان متواجد في نقطة س و السلحفاة تبعده بمقدار متواجدة في ص، فوصول أخيل إلى ص يعني هذا وجود السلحفاة في مكان آخر ص' و هكذا دواليك و عليه فإنّ أخيل لن يلحق بالسلحفاة مهما ركض. مفارقة السهم و التي تنص على أنّ السهم الذي يطير هو في الواقع ساكن لايطير ففي كل لحظة هو في فضاء هو مطابق لذاته أو مساوي لذاته.

تركيب لكل الفلسفات أو خلاصة كل الأنساق الفلسفية. فلا وجود لحقيقة نهائية تسكن في تقاطع الأنساق الفلسفية. بميّز "جول فيلمان" بين فئتين كبيرتين من الأنساق الفلسفية:

الأنساق الدوغمائية: تتألف من فئات فرعية:

1- النسق الواقعي.

2- النسق المفهوماتي.

3- النسق الاسمي الشيئي.

4- النسق الاسمي الحدثيّ.

الأنساق القابلة للامتحان: بدوره يتكون من:

1- النسق الحدسيّ: و يمثل لذلك بكانط و ليبنتز

2- النسق الشكيّ

يعود " جاك بوفراس" إلى نقطة الانتقادات التي قد توجه إلى أصحاب الأنساق الفلسفية، و تحديدا إلى أولئك الفلاسفة أصحاب الأنساق الدوغمائية و الموصفون بالاستبداد و العنف من قبل "جول فيلمان" ؛ فما هو النسق الفلسفي؟ و لماذا تمتلك بالماهية صورة نسقية؟ يجيب الفيلسوف معتقدا أنّ الجزء الأكبر من الإجابة نجدها و قد تمثلت في منابع الفلسفة الأولى و يقصد بها الفلسفة الإغريقية، حيت ظهرت هناك الفلسفة الحرّة – لم يحدد ماذا يقصد بالحرة و هل هناك فلسفة غير حرّة، ألا يمكن القول أن الفلسفة إما أن تكون حرة أو لا تكون..- المنهج الأكسيوماتي على التوالي، و بظهورهما وضع حد أو قطيعة بين تفكير فلسفي ممنهج و الخرافة التي سادت قبلا، و كان هذا الظهور ممكنا لتوفر عوامل موضوعية أنتجها الواقع اليوناني آنذاك، و تحديدا ظهور العلوم: الهندسة، الجبر، علم الفلك و الهومونيا. أمّا بخصوص الكيفية التي تمّ فيها ظهور الفلسفة في الزمن ذاك، فيعود إلى عدم تمكن المنهج الأكسيومائي من تقديم إجابات لتساؤلات طرحت حينئذ، و هنا يبرز الدور الوظيفي الذي من أجله ظهرت الفلسفة (المسائل الانطولوجية) و عليه يخلص "جول فيلمان" إلى وجوب إنشاء جسور

تواصل بين العلم و الفلسفة، و لكن لا ينبغي أيضا الانتظار من العلم أن يكون وسيلة يتم من خلالها حلّ مثلا مشكلة تعدد الأنساق الفلسفية.

في المحاضرة الثانية التي قدّمه الفيلسوف "جاك بوفراس" بالكوليج دو فرانس سنة 2011. يتساءل الفيلسوف في البداية عن السبب أو عن الأسباب التي تجعل من الفلسفة نسقية؟ للإجابة عن هذا السؤال يقدم موقف الفيلسوف البريطاني "مايكل دوميت"[1] و الذي استقاه من مقال كتبه الفيلسوف و صدر له سنة 1975 موسوم ب: " هل يمكن أن تكون الفلسفة التحليلية نسقية و هل ينبغي لها أن تكون كذلك؟" لاحظ الفيلسوف "دوميت" و تحديدا بخصوص وضعية الفلسفة التحليلية و في لحظة تاريخية توافق نهاية الأربعينيات من القرن الماضي بروز تيارين متعارضين، تيار مع ضرورة بناء نسقي لكل مسعى فلسفي، و تيار مقابل يرى أصحابه وجوب خلو الفلسفة من كلّ بناء نسقي، التوصيف الذي يقترحه "دوميت" للوضعية التي كانت عليها الفلسفة في "أكسفورد" أواخر الأربعينيات، مضيء للغاية في تصور "جاك بوفراس" ، لم تكن فلسفة "هيدجر"[2] آنذاك هي الفلسفة المُحَاربة في هذه الجامعة العتيقة إنما فلسفة "كارناب"[3] المنتمي إلى "حلقة فيينا" [4] ، فالعدو اللدود زمن كان "دوميت" طالبا لم يكن "هيدجر" كما قد يعتقد إنما كان "كارناب" الذي كان يُمثل الخطأ الفلسفي و المنهجي، بينما كان يُنظر إلى "هيدجر" على أنه شخصية هزلية تافهة. و النظرة الانتقاصية لعمل "كارناب" صادرة عن الفلاسفة البريطانيين لم تكن يشاطره معهم الفلاسفة الأمريكان، في تلك الآونة، بل على العكس من ذلك، حظيت أعمال "كارناب" بالقبول، و رُحّب بالشخص، و دليل على ذلك

---

[1] - مايكل دوميت فيلسوف بريطاني ولد في يوم 27 جوان 1925 و توفي في 27 ديسمبر 2011 ينتمي إلى التحليلية الفلسفية أشهر الفلاسفة البريطانيين الذين تكلموا عن التكيّف العرقي و المساواة..

[2] - فيلسوف ألماني من مواليد 26 سبتمبر 1889 و توفي في 26 ماي 1976 من أبرز مؤلفاته الوجود و الزمن.

[3] - هو رودولف كارناب فيلسوف و منطقي ألماني من مواليد 18ماي 1891 و توفي في 14 سبتمبر 1970 من أبرز مؤلفاته البناء المنطقي للعالم.

[4] - تجميع لفلاسفة و علماء بدأت نشاطاتها ابتداء من سنة 1923 ، رسميا من سنة 1929 تحت اسم جمعية أرنست ماخ – فيزيائي و فيلسوف نمساوي من مواليد 1938 توفي سنة 1916 من مؤلفاته في ميدان الفلسفة المعرفة و الخطأ- إلى غاية سنة 1936 لحظة اغتيال رئيس الجمعية موريتز شليك من قبل أحد طلبته القدامى – فيلسوف ألماني يعتبر أحد مؤسسي الوضعية المنطقية و أحد الفلاسفة التحليليين الأوائل،من 14 أفريل 1882 قاعدته فيزيائية حيث درس الفيزياء تحت إمرة العالم ماكس بلانك – من مواليد 1858 توفي 1947 صاحب نظرية الكوانتا في الفيزياء مؤسس ميكانيكا الكونتية- من مؤلفاته النظرية العامة للمعرفة- يعد كتاب فيتجنستاين logico tractatus philosophicus الكتاب الأساس لهذه الحلقة.

تأثر فلاسفة أمثال "كواين" [1] بفكر "كارناب". و تبعا لما جاء أعلاه يظهر لنا أي التيارين المتصارعين مع النسقية في الفلسفة و الفريق الذي يرفض قطعا هذه الوجهة. الذين اعتقدوا أنّه لا ينبغي للفلسفة التحليلية أن تكون فلسفة نسقية، ذهب هذا المذهب ظنا منهم أنّ الفلسفة لا تشبه بأي حال من الأحوال العلم فطبيعة كليهما متباينة، اقتنع الفلاسفة البريطانيون بهذا تحت أفكار فيتجنستاين التي تنص على أنّ الفلسفة لا تشبه العلم و لا يمكن لها أن تكون علمًا، فهناك اختلاف بين العلم و الفلسفة ليس على مستوى الدرجة، إنّما الاختلاف يكمن في العمق أي في الطبيعة. و هذا يعني أنّ الفلسفة لا تسعى إلى اكتشاف الحقائق أو إقامة حقائق، و ربما لهذا السبب لا وجود لاتفاق بين جمهور الفلاسفة إزاء حقيقة من الحقائق. و يشير "جاك بوفراس" أنّ موقف فيتجنستاين هذا لم يغيّره إطلاقا، لا في مرحلة فكره الأولى، و لا في مرحلة فكره الثانية. إنّ دور الفلسفة بالنسبة لهؤلاء يكمن في تصحيح غياب الفهم أو عدمه عن استعمال اللغة أو تصوراتنا. القول على أنّ الفلسفة ليست نسقية متعلق بالفكرة التي مفادها أنْ لا مكان للنسقية في الفلسفة بخلاف العلم؛ و إن كان "جول فيلمان" متأثر بالفلسفة التحليلية، إلا أنّه لا يذهب هذا المذهب، بل يرى أنّ البحث الفلسفي مسعى نسقي بامتياز، حتى و إن تعددت الأنساق الفلسفية. في آخر مقال الفيلسوف " مايكل دوميت" يقترح معنيين للنسقية في إطار البحث الفلسفي:

المعنى الأول : و هو معنى نظري، أي القصد من النسقية هاهنا نظري، أي بناء نظرية مثل ما قام به الفلاسفة القدماء –أفلاطون-

المعنى الثاني: و هو معنى منهجي أي العمل وفق مناهج معتمدة من قبل الجميع و إن كانت نتائجه مقبولة أو مصادق عليها أو مرفوضة استنادا لمعايير محددة.

بناء على هذا، يستخلص "مايكل دوميت" أن الفلسفة كانت نسقية بالمعنى الأول، إلا أنّها لم تصل بعد إلى النسقية بالمعنى الثاني. أما الفيلسوف "جاك بوفراس" يقترح أربع إجابات ممكنة للسؤال أو مشكل النسقية في الفلسفة:

الإجابة الأولى: يمكن أن نذهب إلى القول بأنّ الفلسفة لا نسقية، بحسب المعنيين، المعنى النظري و المعنى المنهجي المقترحين من قبل "مايكل دوميت"

[1] - فيلسوف و منطقي أمريكي من مواليد 1908 و توفي 2000 أحد أبرز ممثلي الفلسفة التحليلية من مؤلفاته الكلمة و الشيء

الإجابة الثانية: الفلسفة نسقية بالمعنى الأول من دون أن تكون كذلك بالمعنى الثاني. يشير "بوفراس" أن هذه الإجابة يتبناه أستاذه "جول فيلمان".

الإجابة الثالثة: الفلسفة نسقية بالمعنى الثاني و لا يمكن أن تكون كذلك بالمعنى الأول، بعبارة أخرى وصول الفلسفة إلى حقائق معترف بها من قبل الجميع و ليس بالضرورة أن تتوصل إلى نسق حقائق بالاعتماد على منهج.

الإجابة الرابعة: أن تكون نسقية بالمعنيين النظري و المنهجي

ليلاحظ "مايكل دوميت" أنّ غياب النسقية بالمعنى الثاني هو الذي يمثل الفضيحة الدائمة بالنسبة للفلسفة، و للحيلولة دون استمرارها، و من ثمة تأثيرها السيئ على التفكّر الفلسفي يقترح حلا كفيلا بأن يحقق المعنيين معا و في آن واحد،يُبنى على ثلاث ملاحظات:

الملاحظة الأولى: في الآونة الحالية، نجح الفلاسفة من تحديد الجزء الواقعي المُكوّن للفلسفة، و المتمثل في البراديغم الحقيقي للفلسفة الأولي و الذي يتألف من فلسفة اللغة و الناجم عن النتيجة الأساسية التي توصل إليها فريجه[1] و التي مفادها أنّ الفلسفة بصفة عامة تقوم على فلسفة اللغة؛ لا كما كان متصورا على قاعدة ابستمية.

الملاحظة الثانية: دراسة مشكلات فلسفة اللغة بطريقة مناسبة يستدعي بناء نظرية مؤسسة أو مُفصّلة.

الملاحظة الثالثة: يذهب " دوميت " إلى الاعتقاد، إلى أنّه حاليا، من الممكن إنشاء مثل هذه النظرية، نظرا لتوفر المادة المعرفة التي تجعل من هذا النوع من النظريات متحققا على أرض الواقع. و عليه و فق ما تقدم ستكون الفلسفة نسقية بالمعنيين في تصور " دوميت "

-سبينوزا -

[1] - هو فريدريك لودفيغ غوتلوب فريجه ولد في 08 نوفمبر 1848 و توفي في 26 جويلية 1925 رياضي و منطقي و فيلسوف ألماني، يعدّ أشهر من اهتمّ بمنطق الرياضيات الحديثة، كان لعلمه تأثير كبير في تأسيس فلسفة القرن العشرين من مؤلفاته أسس علم الحساب.

1- دروس حول سبنوزا – تقديم الأستاذ جيل دولوز - – من يوم الثاني من شهر ديسمبر ثمانين ألف و تسع مئة إلى غاية الرابع و العشرين من مارس واحد و ثمانين ألف و تسع مئة-

أ- أجرى الفيلسوف جيل دولوز لقاء صحافيا فريدا من نوعه سنة 1988، كانت الطّالبة السابقة و الصحفية كلير بارنييه، هي التي تقوم بطرح أسئلة هي التي هيئتها و وضبتها، و أثناء هذا الحوار المطول، ذكر الفيلسوف أن سبينوزا هو الفيلسوف الأقرب إلى قلبه، فهو لا يخلد إلى النّوم إلا بعد ما يقرأ شيء ما لهذا الفيلسوف صاحب رؤية كما وصفه؛ و لهذا السبب فقط، و قد يكون هناك عدّة أسباب مختلفة و متباينة تدفع بالمنشغل بالفلسفة و بتاريخها إلى أن تستوقفه أفكار متميزة لفيلسوف عاش الفلسفة و ناضل من أجل سيادة فضائل التبصر و التدبر إلى آخر رمق من حياته البسيطة الزاهدة. إذا، لأن دولوز قد يكون أحد الفلاسفة في القرن العشرين الذين تمكنوا من مجاورة فكر هذا الإنسان، فأدركوا المعنى و المقصود السبينوزي. بدا لي أنه قد يكون من المناسب أن أقترح قراءة دولوز لسبينوزا لطالب المعرفة، و نحن نبسط الموضوع سنعتمد ابتداء في الإفصاح على محاضرات أو دروس قدّمها الأستاذ طوال سنة و نيف السنة قدّمها من يوم 02 ديسمبر 1980 إلى غاية 24 مارس 1981. و لن يكون بسطنا للموضوع إلا بسطا جزئيا مؤقتا يتناول طي من طيات هذا الموضوع ليس إلا. يعقل كثيرا إن اعتبر منشغل بفكر سبينوزا كتابه العمدة "الإتيقا" – علم الأخلاق كما جاء في الترجمة العربية – المصدر الأساس لتشكيل رؤية حول إسهامات هذا الفيلسوف الفكرية. و هذا فعلا ما قام به الأستاذ، فأثناء تقديم محاضراته، كان دائم العودة إلى هذا الكتاب أوّلا، طارحا في المستهل سؤالا فاتحا، سؤال عن البداية – فلكل شيء بداية و منطلق – سؤال فحواه أنطولوجي، غير أن صياغته لم تكن كذلك، حيث جاءت صياغة استقصائية تجافي العمودية، و ترتضي لنفسها الأفقية، سؤال أرضي لا سماوي، فكيف نبدأ و ننطلق إن كنا بصدد الكلام عن الأنطولوجيا، خاصة إن كانت هذه الأنطولوجيا ينظر إليها من زاوية نظر محايثة، حيث الكائن متواجد في كلّ مكان، و الكائنات متواجدة فيه، و كذا المتعينات، ليستطرد و تحت ثقل سؤال البدء، أنّ الانطلاق، سيكون بكيفية ما، و بمقتضى الفكرة الرائجة التي تفيد أنّ الفلاسفة غير متفقين فيما بينهم حول هذه المسألة، فلكل فيلسوف تصور خاص حول هذه المسألة، لهيجل فكرة حول من أين و كيف تكون البداية، لكانط أيضا فكرة أخرى، و لفيورباخ

فكرة ثالثة أخرى، و هكذا، و مسايرة لهذا الخط فإن سبينوزا بدوره و كبقية الفلاسفة له رؤيته حول سؤال البدء. و لكن ما هو متعارف عليه بخصوص رأي سبينوزا

يستهل جيل دولوز في تقديمه لسبينوزا و لفلسفته العملية، بفقرات قد انتقاها من رواية للكاتب "برنارد ملامود"[1] الموسومة ب:" رجل كيف"، نطّلع فيها على استجواب القاضي لمتهم، يسأل فيه عن الداعي الذي دفع به – أيّ المتهم- إلى قراءة "سبينوزا" اليهودي،يرد المتهم أنّ سبينوزا لم يكن محبوبا من قبل رجال الدّين اليهود، ليسأله بعد ذلك، عن دلالة الإنتاج الفكري للفيلسوف في تصوره، فيذكر أنّ الأمر ليس هيّنًا، و عندما يقرأ أحد كتب سبينوزا، يؤخذ مأخذا قويًا، فيرتفع عاليا في السماء، كما يطير الطائر في عنانها، ليخلص إلى أنّ سبينوزا أراد أن يجعل من نفسه إنسانا حرا، قدر المستطاع تحت تأثير أفكاره التي تذهب به إلى أبعد نقطة، و بربط العناصر فيما بينها.

قبل أن يقدم جيل دولوز سبينوزا التقديم التقليدي، من زاوية مدنية، يتحدث عنه، بصفته مشروعا إنسانيا، الذي يتجاوز اليومي و ما يعنيه من تبعية و إذعان للأوامر و الإكراهات المختلفة، الاجتماعية و الطائفية، و الفئوية؛ سبينوزا بصفته قوة قد ارتدى عباءة الزاهد الناسك، حامل لأحوال الفقر و التواضع و العفة، مطية بلوغ غايات خاصة، خارقة للعادة، لا تمت بصلة للزهد كما هو متعارف عليه دينيا، و لا تخدم غايات أخلاقية و لا هي سبل دينية يراد منها الانتقال إلى حياة أخروية في أمان،بل آثار للفلسفة في حدّ ذاتها، فعلى الفيلسوف التحلي بتلك الصفات باعتبارها آثار غنية و قوية كفاية لتستحوذ على الفكر، و تُلحق بها باقي الغرائز و التي يسميها "سبينوزا" بالطبيعة: حياة لا تُعاش انطلاقا من الحاجة، استنادا إلى وسائل و غايات، بل انطلاقا من إنتاج، من إنتاجية، من قوة تبعا لعلل و نتائج. يمثل التواضع، و الفقر، و العفة،بالنسبة لسبينوزا شكل حياتي لكائن كبير حي، يكون الجسد معبدا لغاية عظيمة للغاية، غنية للغاية، ممتعة للغاية،من شأنها أن تشعر بالخجل أي اعتداء على الفيلسوف، لأنّه اعتداء على تلك الصّفات أو الخصال، ممّا ينجر عنه مضاعفة شعور المسعور، فالفيلسوف في مقام سبينوزا لا يمنح أيّ سلطة على الرغم من استيعابه لكل الضربات، فيلسوف غير منخرط في أي وسط اجتماعي، لا يمكن أن يكون محلّ استفادة من قبل الغير؛ أيّ نعم، قد يجد في

[1] - ولد في 26 أبريل 1914 و توفي في 18 مارس 1986، كاتب أمريكي منحدر من أسرة يهودية روسية هاجرت إلى الولايات المتحدة. من مؤلفاته "رجل كيف" و الصّادر سنة 1966، المستوحى من حدث واقعي، من قضية جنائية اتهم فيها يهودي يدعى "بيليس منحايم مندل" بقتل طفل و التنكيل بجسده تنكيلا طقسيا، و ذلك سنة 1911، ليتبيّن في النهاية أنّه بريء من الفعل المنسوب إليه. في سنة 1968 تصور القصة فيلما.

الأوساط الديمقراطية الحرّة أفضل شروط البقاء، تضمن له أن لا يتابع و لا يطارد من قبل الأشرار و لا يُعكر له صفوة حياته. بالنسبة لسبينوزا و بحسب جيل دولوز، كل المجتمعات البشرية تقوم على الطّاعة و الامتثال للقوانين الاجتماعية، و عليه، فإنّ مفاهيم مثل الخطيئة، الخير، و الشر،و الاستحقاق من عدمه، كلّها مفاهيم اجتماعية، اتسمت بسمة الطّاعة و عدم الطّاعة، و أفضل المجتمعات هي تلك لا تُلزم التفكير بصفته قوة، الإذعان و عدم الإذعان؛ و طالما كان الفكر حرّا، حيوي، فإنّه لا شيء إذاك يدعو إلى القلق. يستطرد "دولوز" عن إماطة اللثام عن سبينوزا واصفا إياه بالمقيم غير الدائم، مسافر زاده و هويته فكره.. و عليه لا ينبغي تخيل سبينوزا و هو يضع قطيعة مع الوسط اليهودي المغلق على نفسه افتراضا،الانتقال فالدخول إلى الأوساط الحرّة المفتوحة افتراضا، و المؤيدة للإخوة دو فيت بدوافع سياسية ضيقة. فأينما اتجه الفيلسوف، لا يتحرك بدافع الاستجداء، لا يطالب، اللهمّ إلا أن يكون – مع شيء من الحظ- متقبلا هو و مقاصده،مسموحا له، يرى دولوز أنّ التسامح متى وجد في مجتمع أشّر و كان معيارا لدرجة الديمقراطية، و من ثمّة لدرجة الحقيقة التي بمقدور هذا المجتمع تحمّلها.

أمّا سبينوزا المدني، يعرّفه دولوز وفق النقاط الآتية:

- ولد سنة 1632 في الحي اليهودي،لأسرة تجارة غنية، من أصول إسبانية أو برتغالية. في المدرسة اليهودية، يتلقى دروسا في الدّين و التجارة.

- ابتداء من سنته 13، يعمل في المحلّ التجاري العائلي مع شقيقه، و ذلك تزامنا مع وفاة والده سنة سنة 1654 حتى سنة 1656

جون لوك

1- من هو جون لوك؟

- ولد السيّد لوك في يوم 29 أوت سنة 1632 في قرية " رينجتون " wrington بمقاطعة سومرسيت. كان والده محاميا، أغدق عليه منذ نعومة أظافره، و في مرحلة الصبا، بوافر الاهتمام و

منتهى الرعاية و التوجيه. ممّا جعل بعد ذلك لوك الابن، يتبنى موقفا في تربية الأطفال، قد بسطه في كتابه الموسوم ب: " خواطر في التربية " الصّادر سنة 1693 ، فحواه الاستعاضة عن طريقة انقياد الطفل الانقياد الأعمى لأوامر الوالدين. ظلّ لوك يدعو إلى التسامح طوال حياته، حيث كتب في هذا الشأن كتابه " رسالة عن التسامح " و الصّادر سنة ،1689 رافضا كل نزعة تسلط أو وصاية من قبل أي شخص على الآخرين من النّاس، فلا يلزمهم معتقده كرها، يقول :" إنّ كلّ من يبحث ثم ينتهي من البحث، إلى يأخذ الخطأ دون الصّواب، أو الباطل دون الحق، فقد أدى واجبه خيرا، خيرا ممّن يُسلّم بالصواب أو بالحق، تسليما دون بحث أو فهم". اطلع لوك أن يرى ذات يوم القواعد الأخلاقية و قد اختزلت إلى طائفة من المبادئ العامة المنسقة، و الطقوس الدينية إلى شعائر بسيطة. احتك لوك بالدوائر العلمية، فصادق علماء، كعالم الكيمياء" روبرت بويل "[1] و الطبيب "توماس سيدنهام"[2]؛ أمّا بخصوص علاقته برجالات السياسة، فقد ارتبط بعلاقة وطيدة، علاقة رعاية و نعمة، بأحد مؤسسي حزب "الهويج"، الحزب المعروف عنه أفكاره التحريرية، مقابل الحزب المحافظ المدعو "توري"، و نقصد اللورد شافتسبري الأول[3] . توفي في 27 أكتوبر من عام 1704.

2- مبحث في الفهم الإنساني:

- في بداية سنة 1690 ، ظهر مؤلف لوك الضخم الموسوم ب :" مبحث في الفهم الإنساني"؛ و قد ذكر الفيلسوف في مقدمة كتابه هذا،- الظافر على مكانة عالية حتى بلغ مكانة الإنتاج الفكري الأرسطي و معلقيه-، و هو يخاطب القارئ، ذاكرا أنّ المؤلف، هو ثمرة ساعات الراحة و التي خصصها حصرا لهذا العمل، راجيا أن يكون مفيدا، و بالتالي لا يكون مضيعة وقت، بل المراد أن يكون جالبا للفائدة، كما هو الشأن بالنسبة له، أثناء كتابته، مردفا أنْ لا يذهب ظن القارئ، فيتوهم أن ما يذكره من قول، ما هو في واقع الحال إلا شكل من أشكال الإطراء الذاتي، و أي شخص يسلك هذا المسلك، فقد سلك مسلك الظّن الذي لا أساس له من الصّحة البتة. القصد من وراء كتابة المؤلف، مبرأ من أيّ اعتبار عرضي يزول قطعا، بل المرتجى الأول و الأخير لن يكون في مطلق الأحوال، إلا بحثا عن الحقيقة لا غير. أمّا ما تعلّق

---

[1] - فيزيائي و كيميائي أيرلندي من مواليد 25 يناير 1627، و توفي في 31 ديسمبر سنة 1691، يعدّ أب الفلسفة الطبيعية الحديثة.

[2] - ولد في 10 سبتمبر 1624 و توفي في 29 ديسمبر 1689، يُلقب بأب الطبّ الانجليزي أو هيبوقراط الانجليزي.

[3] - ولد في 22 جوان 1621 و توفي في 21 يناير 1683.

بملابسات كتابة المؤلف، فلقاؤه بثلة من الأصحاب ذات يوم، يتبدلون أطراف الحديث عن موضوع لا يمت بصلة مباشرة بمضمون الكتاب، و يذكر الأستاذ محمد فتحي الشنيطي، أنّ الحديث انصب حول قضايا الدين و الأخلاق، و بعد مداولات و أخذ و رد، لم يصل الأصحاب إلى موقف سواء. الأمر الذي أفضى بلوك في حينه، إلى ضرورة القيام بدراسة تحليلية لقدرات الإنسان، عسى أن يتبيّن المواضيع التي تكون تحت طائلة الفهم و الإدراك.

- بعد ذلك، حضرت للوك أفكارا غفل، احتاجت آنذاك إلى تحليل، قيدها، ليعرضها على أصدقائه. فكانت بمثابة الأفكار القاعدية لمؤلفه، و الذي لم ينجزه إلا بطريقة مرحلية، يكتب الجزء، فيتوقف. ينقضي وقتا، ليعود مجددا ليكتب جزءا آخر، فيعود مرة أخرى، و هكذا دواليك. لينهي العمل آخر مطاف، و قد اكتمل، و توزّع على هذه الهيئة:
- الباب الأوّل: نقد نظرية الأفكار و المبادئ الفطرية.
- الباب الثاني : عرض أصول أفكارنا.
- الباب الثالث: بحث في صلة الفكر باللغة و تأثير الألفاظ في التفكير، و تحليل للفلسفة المدرسية على ضوء هذه العلاقة بين اللغة و الفكر.
- الباب الرابع : نظرية المعرفة

أهم ما جاء في " مبحث في الفهم الإنساني " من أفكار. تعريب، و اقتباس الدكتور فتحي الشنيطي:

1- نقد نظرية الأفكار و المبادئ الفطرية : يأبى" لوك" قبول الرأي القائل بأنّ هناك مبادئ فطرية ملازمة للإنسان، كمبدإ الهوية، أو ذاك القائل بأنّ الكلّ أكبر من الجزء، أما حجة أصحاب هذا الرأي أو ذاك، هو كونها قد تم الموافقة عليها من قبل النّاس، فإنّ لوك يرد، رافضا، معتبرا أنّ الموافقة الكلية لا ترقى إلى مستوى الدليل، و الثابت مع ذلك، أن هذه الموافقة الكلية، غير مسلم بها. فالكثير من النّاس لم يسبق لهم أنْ تصوروا مثل هذه المبادئ كالأطفال و البدائيين. غير أنّ لوك لا يعترض على أننا قادرون بالقوة، معرفة هذه المبادئ، و لكن الزعم بوجودها و قد أضمرت في الذهن، لا يعرفها و ليس على وعي بها فهذا الذي يرفضه، فنحن لا نعرف هذه المبادئ إلا استدلالا، على الرغم أننا نستخدمها فيه؛ يقول : " فإنّ من يحسم نفسه مشقة النظر بشيء من الانتباه في عمليات الفهم سيجد أنّ هذا القبول الحاضر للذهن لبعض الحقائق لا يعتمد على سجل أصلي في العقل أو استخدامه (أي في الاستدلال) بل على ملكة للذهن متميّزة تماما منها " و قد قصد ملكة الحدس و عليه لا يبنى على صحة الموافقة الكلية ،

حجة على فطرية معرفة المبادئ ، علاوة على ذلك، من غير الممكن أن نطلب لهذه المعرفة أية أولية في الزمن ، فمن الواضح أنّ معرفة المبادئ من حيث هي مجرّدة تأتي اكتسابا فيما بعد. يمضي الدكتور فتحي الشنيطي ناشرا موقف لوك ، فالإحساسات من قبيل تمييز الألوان، تحدث و قد جهلنا مسبقا مبدأ عدم التناقض، فكيف يكون هذا المبدأ مطبوعا في العقل أصلا. يعود لوك إلى الحجة المقدمة كدليل على أنّ وجود مبادئ مطبوعة أصلا في العقل. ناظرا في طبيعتها مبرزا أنه في الواقع لا تترجم سبقا زمنيا، بل تحيل إلى ضرورة منطقية. فإن قلنا إن شيء هو ذاته فهمنا ذلك و صدقناه مباشرة، فهل يستلزم نتيجة، أن الضرورة تفضي حتما إلى تبني القول الذي يفيد بأنّ المبادئ مطبوعة فطريا في الذهن ؟ و التسليم بوضوح المبادئ بذاتها ، لا يعد في مطلق الأحوال حكرا أو حصرا على المبادئ، بل هناك أيضا حقائق أخرى كثيرة و ليست بالحقائق الفطرية ، توصف بالوضوح، مثال ذلك الحقائق الرياضية. و عليه يخلص " لوك " إلى القول أنّه ليس ثمة ما يظهر أن المبادئ التي تُنظِم التأمل كمبدإ الهوية و مبدإ عدم التناقض، مبادئ تُدرك إدراكا فطريا، و إن كان الأمر غير كذلك، فما قولنا بالنسبة للمبادئ العملية التي توصف على أنها فطرية. يتساءل "لوك" عمّا إذا كان هناك فعلا، مبادئ من هذا القبيل، هي محلّ اتفاق بين النّاس جميعهم، معترفا بضرورة التسليم بوجود بعض الميول المشتركة في الجنس البشري. فمن المشترك عند الناس جميعا " الرغبة في السعادة و كراهة الشقاء " غير أنها لا ترقى إلى مستوى الانطباع و الذي يعتبره أساس الحقيقة. و يختلف الأمر في نظر الفيلسوف إن تعلّق بالمبادئ الأخلاقية، فنسبة اتفاق الناس إزاء هذه المبادئ أكبر، مقارنة بالمبادئ التأملية الذي جاء ذكرها أعلاه، و إن اقتنعنا بعدم فطرية المبادئ التأملية، فحري بنا أن نقتنع أيضا بأنّ المبادئ الأخلاقية ليست كذلك. أما عن منشأ المبادئ الأخلاقية ، فيرى "لوك" أنها تعود و بكل وضوح إلى مصادر أربعة : العقل و التنشئة الأسرية و الاحتكاك بالرفاق و الأصدقاء، و الأعراف الاجتماعية، و الملفت أن الفيلسوف "لوك" يقر بأنّ هناك قوانين ثابتة و سرمدية تقوم عليها الأخلاق، و لكن لا سبيل إلى معرفتها بالرجوع إلى معرفة فطرية ، يصفها بالغامضة، لأنه لو كان كذلك ،و هو ليس كذلك،لما شهدنا كثيرا من الأمم تضرب عرض الحائط و لا تقيم وزنا ، لبعض هذه المبادئ أو جلّها ، غير آبهة و لا مكترثة.

2- **التجربة منبع الأفكار:** بعد هذا التشهير و التشنيع بما ندعوه الأفكار الفطرية، يتصدى "لوك" إلى مسألة طبيعة المعرفة ، محللا عناصرها، واصفا في المقام الأول الذهن، بأنّه أشبه بالصفحة البيضاء لا خصائص و لا أفكار بحوزته. مقسّما مصدر الأفكار إلى مصدرين:

أ- المصدر الأوّل: الإحساس الخارجي، معتبرا الحواس بمثابة قنوات نقل يعتمدها الذهن، في نقل الإدراكات، فالحواس تستقبل و هي بحال التأثر، الموضوعات الخارجية، لتصل بعد ذلك إلى الذهن، فتستحيل أفكارا، حينئذ نتكلم عن فكرة الأبيض، و فكرة الأسود، و فكرة الحار، و البارد، و الصلب و اللين و المر و الحلو. و هذه الأفكار هي مصدر معظم الأفكار .

ب- المصدر الثاني: الإحساس الباطني، عمليات ذهنية من إدراك و تفكير و شك و اعتقاد و على أعقاب هذه العمليات تتكون انفعالات، كرضا و الضيق. و تتميز الأفكار الناشئة عن هذه العمليات عن تلك المتأتية عن الموضوعات الخارجية، و هذا اعتراف من قبل "لوك" بوجود أفكار لا علاقة لها، بالعالم الحسي الخارجي.

يتعرّض " لوك " في الباب الثاني من مؤلفه – مبحث في الفهم البشري – إلى موضوع الأفكار فيحصيها، مميزا الأفكار البسيطة و المتولدة من الإحساسات، عن أفكار الإدراك، و اعتباره الأفكار الأخرى مهما كانت مركبة إلى أفكار بسيطة. أما منشأ أفكار الإحساس، فبعضها صادر عن الذهن، من حاسة واحدة مثل الألوان، و الأصوات، و الأذواق، و الروائح، و الحرارة، و البرودة، بينما الأفكار الصادرة عن أكثر من حاسة، فهي الحيز، و الشكل، و السكون، و الحركة، أمّا الشعور باللذة، و الشعور بالألم، ففكرتان ناجمتان عن نشاط الذهن. و يعتبر " لوك" مصدر المعرفة حصرا الأفكار البسيطة، و كلّما تزوّد بها العقل، أقدم على مقارنتها، و تجميعها، بطرق لا تكاد تُحصى، و لتقريب الفهم يُشبه " لوك " العقل بالحُجرة المظلمة، و الإحساس الخارجي و الإحساس الداخلي نوافذ يلج من خلالها الضوء، لا يكاد الضوء يَنْفُد إلى المكان المظلم، حتى ينطلق العقل في نشاط دؤوب لا نظير له في تعديل و تحويل الضوء. ممّا يمكنه من خلق أفكار مركبة استنادا على أفكار بسيطة.. و تشتمل الأفكار المركبة على أنماط ثلاثة :

النمط الأول: الضروب و هي تدل على صفات لا تقوم بذاتها ، بل توجد في غيرها كالجمال في الزهرة..

النمط الثاني: الجواهر ، أفكار دالة على أشياء توجد بذاتها، كالزهرة ، الإنسان..

النمط الثالث: العلاقات أفكار تُعبّر عن روابط؛ كفكرة الأبوة، الأكبر، و الأصغر..

و هذه الأفكار هي ثمرة نشاط الذهن، و قد توهم الفلاسفة العقليين أنها فطرية، و لا دخل للتجربة فيها.. و لأجل تبيان خطأ هذا الاعتقاد و عدم دقته، لا يرى بدا من تحليل بعض الأفكار المركبة. فمثلا فكرة اللامتناهي لا تعدو أن تكون ضربا بسيطا للكم . و السرمدية ضربا

بسيطا للزمان... ذلك أننا لما كان وجودنا وجودا متناهيا محددا بالمكان و الزمان، فإننا نتصور مكانا لا نهاية له و زمانا لا يحده حدّ بالاعتماد على المقارنة و التخيّل، و بالنسبة لفكرة الجوهر عند " لوك " و بحسب قراءة الدكتور فتحي الشنيطي، فهي التي يسقط في يد " لوك " إزاءها، و قد يُفهم من هذا التوصيف أنّ لوك لم يُحط علما كافيا بفكرة الجوهر، غير أن المترجم لا يتوقف عند الحدّ ، ذاكرا أنّه و على سبيل المثال فكرة الإنسان عند الفيلسوف في وسعنا أن نحلّها إلى عدد من الأفكار البسيطة، مثل الامتداد و الشكل و الصّلابة و الوزن و اللون مجتمعة.. يُتابع الدكتور في النشر، مفصحا أنّ ما كان شائعا بين الفلاسفة آنذاك، أن ثمة جوهرا معينا تلتقي عنده الصّفات أو تقيم فيهو تنجم عنه. يتساءل "لوك" لئن كان في وسعنا أن نشكّل فكرة واضحة أو نعطي تفسيرا معقولا للجوهر؟ يجيب بأنّ الجوهر فكرة مشوشة مضطربة، تنتمي إليها الصّفات و تقيم فيها إن اسم الجوهر يدل على سند و الحال هكذا، فلا طائل من طرح السؤال حول كنه الجوهر، و الذي يذهب هذا المذهب أشبه بالهندي المتوهم بأن العالم يحمله فيل ضخم ، و عندما سئل و من يحمل الفيل؟، أجاب سلحفاة ضخمة، و حينما سئل مجددا و من يحمل السلحفاة ؟ أجاب أنّه شيء ما لا يعرفه. يستنتج "لوك" من هذه السردية أن الاحتماء بعبارة شيء " يعني أننا نتحدث كالأطفال حين يسألون عن معنى هذا الشيء الذي لا يعرفونه يجيبون بأنّه شيء ما و لكنهم لا يعرفونه. كان ربما في تصوري أن يسير "لوك " في مسار فكري غير الذي انتهجه، فينطلق من الفكرة التي مفادها أن المعرفة على وجه العموم عملية تتنامي و تتطور بفعل عوامل و احتياجات واقعية إنسانية، تدفع الفكر نحو الاستزادة المعرفية، تلبية لحاجات عدّة، فضلا على هذا ينبغي على المرء، أن يدرك و بعد تدبر، أن المعرفة إجمالا لا تحصر في وظيفة واحدة وحيدة، بل لوجود المعرفة الإنسانية وظائف شتى مرتبطة بالراهن و التطلّع. و لا تقتصر فقط على الفضول و الرغبة في الاستزادة في المعلومات؛ فكما للمعرفة الجانب الكمي التراكمي، لها أيضا جانبا كيفيا. و في المقابل ينبغي أن نعترف أنّ المنطق الذي قاد "لوك" إلى استنتاجاته يلزمه التأكيد على ما ذكره. و عليه الهندي السعيد كما وصفه و هو يقدم تفسيرا لنشأة العالم أو قل لوضعه، كان ذاك التفسير مترجما و بمقتضى معطيات موضوعية و أخرى اجتماعية، سادت، هي التي ساهمت في بناء هذا النوع من المعرفة المقترح من قبله. أمّا التساؤل عن صحة هذه المعرفة من خطئها، فعلينا ابتداء أن نحدد ثم نتفق على جملة من المعايير، كفيلة من أن تميّز الصواب من الخطأ، و تعينها كلّ على حدا.

في نهاية الفصل الثاني يتحدث " لوك " عن تداعي الأفكار، و يلاحظ الدكتور فتحي الشنيطي أنّه قد يكون الفيلسوف أوّل من استعمل هذا المصطلح، و الذي يعني به أن لبعض الأفكار ارتباطا طبيعيا، و بعض الأفكار الأخرى تلتقي في أذهان الناس بحيث لا تكاد فكرة تظهر للذهن حتى تتوارد سائر الأفكار المرتبطة بها.

3- تحديد الإطار العام للمعرفة: يؤكد الدكتور فتحي الشنيطي، على أنّ مؤلف "لوك" "مبحث في الفهم الإنسانيّ" قد اشتمل على دراسات مثمرة و على ملاحظات قيّمة ذات أثر بائن، لدرجة أنّ مؤرخي علم النفس ينوهون بما قدّمه، ليصل بهم الأمر أن يتحدثوا على أنّ المؤلف يعتبر أصلا من الأصول السيكولوجية، و ركيزة من ركائز الدراسات النفسية؛ و إن كان قصد "لوك" هو البحث في طبيعة المعرفة الإنسانية وحدودها، كما ألمعنا. حدّد الفيلسوف الإطار العام للمعرفة بالاستناد إلى طريقة التحليل المنطقي، و التي يراها القارئ جلية في الباب الرابع، حيث قام بعملية تقييم لما يدعوه بالعلاقات، و التي يعتبرها المؤلفة للنمط الثالث من أنماط الأفكار المركبة، و تحديد لطبيعة الحدس، و تمييزه عن البرهان؛ فالذهن لا يسعه اكتساب المعرفة إلا إذا عمد إلى الربط بين الأفكار بعضها بالبعض الآخر، و يترتب عن تلك العلاقات:

أ- الهوية : الفكرة تكون على ما هي عليه.

ب – الإضافة: ارتباط الأفكار بعلاقات مجرّدة عديدة.

ج- الارتباط الضروري: هو الارتباط العلّي بين الأشياء.

د- الوجود الحقيقي: كلّ قضية يتأكد وجود الجوهر فيها، أو ينتفي وجوده مستقل عن إدراكنا، مثال ذلك القضية القائلة :" أنا موجود".

و صفوة القول، أنّ المعرفة عند "لوك" تُبنى على الأسس الآتية:

أوّلا: وجود الموضوعات الخارجية، وجود مستقل عن معرفتنا بها .. عناصر الفكرة الواحدة مستمدة أصلا من الإحساس، وبلورة الفكرة يكون بالعودة إلى نشاط الذهن.

ثانيا: صفات الموضوعات غير مستمدة من العقل.

ثالثا: لا تأثير للموضوعات الخارجية و لا لصفاتها فيما نعرفه.

رابعا: وجود الموضوعات الخارجية غير وجود الأفكار المركبة (الجوهر ، العلية ، الهوية) بل وجود أشبه بوجود الأفكار البسيطة (اللون ، الشكل ، الطعم) ، أمّا لماذا وجود الموضوعات الخارجية يختلف عن وجود الأفكار المركبة، فيعزوه "لوك" لأن الأفكار المركبة ليس لها مقابل حسيّ خارجي مباشر؛ و من ثمة فكل معرفة تقوم قياما على أفكار مركبة كالمعرفة

البرهانية، و المعرفة الاحتمالية، ذات مصداقية، شأن المعرفة المستخلصة من الأفكار البسيطة، الإدراكية و الحدسية، لهذا فالمعرفة التي تبنى على من أفكار مركبة عرضة للخطأ. و طلبا لوضوح أكثر، يلجأ الدكتور فتحي الشنيطي إلى عقد مقارنة بين موقف لوك و موقف ديكارت، مستنتجا أنّ بين الموقفين تناقض، و بدورنا نتساءل هل هناك من المسوغات ما يدعو إلى عقد مقارنة بين المفكرين؟ قد نقبل عقد مثل هذه المقارنات لأغراض تعليمية، لأجل إبراز خصائص نسق فلسفي و قوته، على حساب نسق فلسفي آخر، فنمعن في تقزيم هذا الأخير، و الغرض من وراء ذلك إقناع المتعلم بأفضلية أحد النسقين، دون الآخر، و لئن كان المسعى، محمود النتائج على الصعيد التعليمي، إلا أنّ البعض من الفلاسفة، يثير أسئلة، قد تعلّقت بموضوعية ما قد نقدم عليه عندما نحاول أن نعقد مقارنة بين نسقين، ففي مداخلة قدّمها الفيلسوف الفرنسي باسكال أنجل[1] مناسبة إحياء ذكرى الفيلسوف جول فيلمان و ذلك سنة 2002، أي سنة بعد وفاة الفيلسوف، يتطرق في البداية إلى مسألة الموضوعية و قد ارتبطت بالنشاط الفكري، المشهود للفلسفة طوال تاريخها الطويل، و الحافل بالإنتاج الفكري الهائل كما و المختلف في المنطلقات و النتائج بطبيعة الحال. يتطرق إليها و قد عاد في مقدمة المداخلة مستعينا بأحد الفلاسفة الفرنسيين الذي أسهم و كتب في مجال تاريخ الفلسفة، ألا و هو الفيلسوف مارسيال قيرو[2] ، و الذي يذهب إلى الاعتقاد، بأنّه نكون نتكلم عن الموضوعية في ميدان الفلسفة، متى قدّمنا الدليل على إمكانية بلوغ مبدأ نسق فلسفي ما. و يكون واقعا إن تنبأنا أنّ مشكلة ما لم يتم تناولها، فعلّقت، متروكة في مستوى معين من التحليل؛ استدعى حينئذ اقتراح حلّ منسجم مع مقتضيات هذا المبدأ، و بهذا الإجراء إن تم فعلا، يشعر المؤرخ في الفلسفة، حقق بمسعاه الموضوعية. غير أنّ الفيلسوف "جول فيلمان" تبعا لوجهة نظر "باسكال أنجل" و إن كان يعتقد أنّه يمكن بلوغ الحقيقة التاريخية حول الأنساق الفلسفية، فإنّه لم يذهب إلى الاعتقاد باقتراح الفلسفة لحقائق، فكل فلسفة أصيلة، أثناء بنائها لنسقها، تدرج طريقتها الخاصة، لتحديد ما نقصد بالواقع، و من ثمة تمييزه عن الظاهر، و لا تقديم حجاج متى طرح نتج عنه تحديد النسق الأفضل بين نسقين أو أكثر. بالطبع وجهة الفلسفة الحقيقة، و لكن لا وجود لحقيقة خارجة عن النسق الفلسفي الواحد، مع الإشارة أنّ الكاتب " باسكال أنجل" و

---

[1] - من مواليد 17 يناير 1954 ، مجال عمله يشتمل على الاهتمام بفلسفة الروح و المعرفة، و فلسفة اللغة بالإضافة للمنطق، تنخرط أعماله في إطار الفلسفة التحليلية. من مؤلفاته " الحقيقة "

[2] - من مواليد 15 ديسمبر 1891 و توفي في 13 أوت 1976 من مؤلفاته " سبينوزا "

في مقدمة مقاله[1] صرّح أن الحقيقة الفلسفية مفهوم غير ملائم و غير مناسب في ميدان الفلسفة التعددي، على الأقل إن كنا نقصد بكلمة حقيقة، ما هو متعارف عليه و شائع.

4- اللغة و الفكر : آثرنا في هذا العنصر الاستعانة بنص، و هو في الواقع درس كان قد قدّمه بمحل عمله، السنة الجامعية 2008- لطلبة ليسانس، 2009 الأستاذ " باتيست بوندي مونجان" [2]لعرض أهم العناصر المكونة لنظرية اللغة عند جون لوك، منوها بأصالة فكر الفيلسوف، بجعله اللغة مشكلة مركزية في نظرية المعرفة، و هذا باعتراف الفيلسوف " باركلي"[3] و الذي كان يرى في الجزء الثالث من مؤلف لوك " مبحث في الفهم الإنساني " نص مؤسسٍ، مبرزا ضرورة و قبل الشروع بأي مسعى فلسفي، الأخذ في الحسبان، أهمية الكلمات في تكوين المعرفة، و في أصل الأخطاء. إلاّ أنّ الأستاذ " باتيست بوندي مونجان" يدقق في المسألة، موضحا أنّه و إن كان لوك يُعلي من شأن الكلمات و أهميتها، فأنّه يذكر ذلك و قد وضعه بين قوسين فيقدم فحوى الذكر:" الذي قلته بخصوص الكلمات، في الجزء الثالث، قد يبدو للبعض مُسهِب أو مُسهَب أكثر مما يجدر بموضوع قليل الأهمية"[4] ، ملاحظة كهذه، يقيدها الأستاذ، الغرض منها فيما اعتقد للدلالة على أن لوك و إن كان يرى بأنّ للغة أهمية في بناء المعرفة، إلا أنّ هذه الأهمية يأخذها مأخذ المتحفظ، إشارة إلى قلة أهميتها. و بالعودة إلى مُؤلف " جون لوك " قصد التأكد من قول الأستاذ بخصوص هذه المسألة، تُبيّن لنا المعاينة أن المسألة بحاجة إلى تحريّ أكثر. يقول لوك في هذا الصدد:" الذي أنا بصدد ذكره عن الأشكال المختلطة، يمكن أيضا أن ينطبق على العلاقات، دون أي تغيير ذي قيمة، و لأنه بالإمكان لكل

---

[1]- Pascal Engel, Jules Vuillemin, les systèmes philosophiques et la vérité, colloque à la mémoire de Jules Vuillemin, Paris, 2002, publié in Pellegrin et Rashed, philosophie des mathématiques et théorie de la connaissance, l'œuvre de J. Vuillemin, Paris, Blanchard, 2005, 29-43.

[2] - أستاذ بجامعة باريس نونتار

[3] - جورج باركلي راهب و فيلسوف ايرلندي، و لد في 12 مارس 1685 و توفي في 14 يناير 1753، عادة ما يلحق فلسفيا بالنسق التجريبي، بعد لوك و قبل هيوم، إسهامه المركزي، تمثل في دفاعه عن اللامادية، و الذي يلخص في العبارة :" أن تكون، هو أن تكون مُدْرِكا أو مُدرَكا." Esse est percipi aut percipere " من مؤلفاته: " علم الحساب مبرهن عليه بدون العودة إلى الجبر و الهندسة " .

[4] Pascal Engel, Jules Vuillemin, les systèmes philosophiques et la vérité p01. ترجمة شخصية، المرجع السابق.

واحد أن يدرك بذاته ذلك، و عليه، لن أطيل في الأمر أكثر. و على وجه مخصوص بسبب ما قد قلته حول الكلمات في هذا الجزء الثالث، فقد يبدو ربما لبعض الناس مسهبا أكثر مما يستحق موضوع ضئيل القيمة. أعترف أنّه كان بالإمكان أن أختصر. و لكن كنت جدّ مرتاح و أنا أستوقف قارئي في مادة بدت لي جديدة، و بعيدة نوعا ما عن الطّريق الاعتياديّ (أنا واثق على الأقل بأنني لم أكن لأعلم الأمر، و أنا أهم لكتابة هذا المؤلف) .. " [1] ما قد يتوصل إليه القارئ، أنّ لوك أنّه فعلا كان يولي الأهمية القصوى للكلمات و دورها في تكوين المعرفة، و إن وجد من يقلل من شأنها، فقطعا ليس من جانبه، بل الموضوع هذا في تقديره جديد، و من ثمة علينا أن نولي له الأهمية اللازمة، مادام يمثل مسلكا غير معتاد ينبغي ارتياده من الآن فصاعدا. يتابع الأستاذ " بوندي" عرضه واصفا الجزء الأخير من مؤلف لوك العمدة، بالقطعة الأساسية في البناء العلمي المستقبلي، حيث يبين عن الجدة التي تتصف بها رؤية الفيلسوف، فهو يضع السيميائية جنبا إلى جنب مع الفيزياء أو علم طبيعة الأشياء و علم النشاط البشري، نظرا لأنها العلم المنظم لباقي العلوم، فالكلام عند لوك هو الإطار الضروري للمعرفة، فنحن في نهاية الأمر لا نعرف سوى الكلمات؛ فمن أين تأتي الكلمات ؟ و لماذا تُستعمل من قبل الإنسان؟ حاجة الإنسان للكلمات متأتية من أنها إشارات على أفكارنا القصد من ورائها تحقيق التواصل الفكري، بالإضافة لتقييدها لغرض الاستعمال. و بالتالي فحاجة الإنسان إلى الكلام حاجة مضاعفة، من جهة يجد الإنسان فيه وسيلة لتجاوز النقص الذي يعنيه من ناحية الذاكرة فيسمع على أعقاب ذلك على المحافظة على الفكر و ثباته، و من جهة أخرى هو الضامن للتواصل بين النّاس، و من دونه لا حديث ممكن عن التعاون و البناء الاجتماعيين. يؤكد "لوك" على أنّ الكلمات ليست إشارات طبيعية للأشياء أو الأفكار، فالإشارات الطبيعية الوحيدة و التي يُعترف على أنّها كذلك، هي تلك الأفكار المرتبطة ببنيتنا الجسدية، فإن كان للإنسان بنية جسدية غير تلك التي عليها الآن، لكانت عنده أفكارا أخرى مختلفة جديدة، و

[1] - John Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain ou l'on montre quelle est l'étendu de nos connaissances et la manière dont nous y parvenons, traduit par M. Coste, troisième édition, revue, corrigée et augmenté de quelque addition importante de l'auteur qui n'ont paru qu'après sa mort et quelques remarques du traducteur, à Amsterdam, chez Pierre Mortier, M.DCC.XXXV. P352.
ترجمة شخصيّة

من ثمة نوع آخر من العلاقة بالعالم. و بناء عليه، فالكلمات إشارات اعتباطية، محل مواضعة اجتماعية. و السؤال الذي يطرح هو إن كانت الكلمات سوى أصوات اعتباطية يتلقفها زيد من النّاس، فما الضامن أن يدرك المحتوى الفكري الإدراك الجيّد من قبل الغير؟ يجيب "لوك" بأنّ الكلمات هي علامات خارجية حسيّة تطلعنا على أفكار خفية تسكن دواخل كلّ واحد منّا، و هكذا فإنّ الكلمات لا تحيل البتة إلى الصفات التي تطبع الأشياء. و لا إلى أفكار الآخرين. تحمل الكلمات في ذاتها مرجعا سريّا مضاعفا، من جانب، تستعمل الكلمة بحسب مدلولها المتعارف عليه، على أساس افتراض أنّ باقي النّاس يقترحون المدلول ذاته، و من جانب آخر، يرغب النّاس أن نتخيل أنهم يتكلمون عن الأشياء بحسب ما هي عليه فعلا. ممّا يؤدي إلى بروز خطر مضاعف أثناء استعمال اللغة. أوّلا حينما أتكلم يمكن أن أفكر أن المتلقي يفهم الأشياء كما أنا أفهمها، و لكن كما أنا في علاقة مع أفكاري مرتبط و حسب، فهو أيضا مثلي تماما في علاقة مع أفكاره متصل بها و حسب. ثانيا يمكن أن أميل إلى الخلط بين الأشياء و الكلمات، و إن أذهب إلى أنّ التقسيم اللساني للواقع يناسب التقسيم الواقعي.

و الحال هكذا، هل ينبغي الإذعان و قبول الوضع ؟ كيف نوفق بين وظيفة الكلام الأولى (المساعدة على بناء المعرفة ، و المساعدة على تحقيق التواصل) و ميله الجذري (الطابع المخادع للكلمات و تعدد النقاشات المبنية على عدم التفاهم).

هدف "لوك" تحديدا يكمن في إيضاح دور الكلمات في تكوين المعرفة. فمتى أُسندت للكلمات وظيفتها، أمكن بعد ذلك تحديد تجاوزات الكلام، ما يسفر عنه ضآلة و تقلص مظاهر الغموض في أحاديث النّاس و نقاشاتهم. و الأمر الذي ينبغي تسجيله، هو أنّ جلّ الكلمات هي كلمات عامّة في نظر "لوك" تحيل إلى أفكار مجرّدة. و الفكرة المجردة هي التي نستخلصها من جهة معينة من شيء بعد النظر فيه؛ دون الاكتراث بالملابسات التي واكبت لقائنا به، مثال الثلج و وجه القمر و الحليب أشياء تشترك في صفة البياض برغم من وجود الكثير من الخصائص التي من تلك الأشياء متباينة. و القول بأن الكلمات في معظمها مصطلحات عامة، لا يعني بأيّ حال من الأحوال استحالة أن تعيّن أشياء فردية، فبمقدورنا وصف الشيء من خلال ربطه بمجموعة المصطلحات العامّة، بل بالإمكان التأكد من مدى معرفتنا بالشيء بواسطة عدد من المصطلحات العامة التي تسند إليه، " فالذي يضيف لفكرته المركبة و المتعلقة بالذهب،

الثبات أو القدرة على الذوبان في الماء الملكي[1]، الخاصية التي لم تكن لتُعرف سلفا، و التي لا تغيّر من طبيعة الشيء، و لكن لتكوين فكرة أكثر كمالا، بإضافة فكرة بسيطة إلى باقي الأفكار" و بهذا الشكل يجيب "لوك" عن المشكلة أو يتعدى الصّعوبة التي أعلن عنها أعلاه كيف يتم التواصل بين النّاس و أن يستزيدوا في معرفتهم بمقتضى أفكارهم الخاصة و حسب؟بالنسبة للوك يمكن لهم ذلك لأنّ مصطلح العام " ذهب " على سبيل المثال هو مصطلح متعارف من قبل المتحاورين فكلّ واحد أمكن له أن يضع ما يعرفه و أن يتقاسم مع الآخر ما يفتقده .. ببلوغ لوك هذه النقطة يميز بين الماهية الاسميّة للشيء ، و التي ندعي حيازتها و الماهية الحقيقية أو الطبيعية للشيء و التي تظل الهدف المنشود و الذي لا يتوقف من الابتعاد كلما ظننا الدنو منه .. و الماهية الواقعية هي غاية كل معرفة ، إلا أنّ العالم لا يسعه إلا اقتراح فرضيات محتملة .. يبدو أنّ لوك و بعد تدبر بشأن طبيعة الكلام و دوره في بناء المعرفة ؛ سبّاق إلى ما ندعوه "الانعطاف اللساني"[2] ففي تصوره لا إمكانية لوجود العلم إلا ضمن إطار فكري ، تلعب فيه الكلمات دورا محوريا.

دافيد هيوم :

ملاحظة هامة : نقترح في هذا الظرف السانح، قراءة لفلسفة هيوم - تكون فاتحة من خلالها نحاول نميط اللثام على فكر أهم المفكرين بمملكة البريطانية و على وجه مخصوص ببلاد اسكتلندا موطن دافيد هيوم- ، من قبل الفيلسوف و التربوي الفرنسي غبريال كومباري[3] ، فالفيلسوف الفرنسي قد كتب كتابا عنونه ب:" فلسفة هيوم" يقع في حوالي 526 صفحة قد توزّع على فصول عددها أربعة عشر فصلا: الفصل الأول خصصه لحياة الفيلسوف و مؤلفات، و كان

---

[1] - مزيج من حمض النيتريك و حمض الهيدروكلورك، سمي بهذا الاسم لقدرته على إذابة الذهب و البلاتين – يعرف الذهب بالمعدن الملكي - .

[2] - الانعطاف اللساني أو ما يسمى بالانجليزية ب: linguitic turn تطور كبير في الفلسفة الغربية خلال القرن العشرين من أهم سماته التركيز على الفلسفة و غيرها من العلوم الإنسانية و على العلاقة بين الفلسفة و اللغة في المقام الأوّل ، و الاعتقاد الشائع أن المصطلح من وضع و نشر الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي – ولد سنة 1931 و توفي سنة 2007- في المقتطفات التي كتبها سنة 1967. إلا أنّ الفيلسوف غوستاف برغمان – فيلسوف ولد في ظل الإمبراطورية نمساوية المجريّة سنة 1906 ، ليتجنس بعد ذلك بالجنسية الأمريكية ، توفي سنة 1987- هو واضع المصطلح

[3] - هو جول غبريال كومباري ولد يوم 02 يناير 1843 و توفي يوم 24 فبراير 1913، فيلسوف و منظر في علوم التربية و رجل سياسة فرنسي من مؤلفاته : تاريخ نقدي لنظريات التربية بفرنسا ابتداء من القرن السادس عشر.

يرى في هذا الفصل مناسبة للتعرّض لأهم محطّات حياته و التي فعلت فعلها فأسهمت في بلورة الجانب الفكري لهذا المفكر. الفصل الثاني خصصه إلى منابع فلسفة هيوم و خصائص منهجه الأساسية، و الفصل الثاني حديث عن حقائق يقينية و البرهنة، ثم دافيد هيوم و علم الجمال المتعالي، الفصل الرابع حديث عن التجربة و العلية، الفصل الخامس عرض للاستقراء فمنطق دافيد و منطق ستيوارت مل، الفصل السادس عن الإيمان بوجه عام، الفصل السابع من الإيمان إلى المادة مثالية هيوم و مثالية ستيوارت مل، الفصل الثامن الاعتقاد في الروح أم الاعتقاد في الأنا، الهوية الفردية، الفصل التاسع كلام عن الإيمان بالله، حوارات حول الدّين الطبيعي و التاريخ الطبيعي للدّين، الفصل العاشر حديث عن الأهواء، الفصل الحادي عشر بسط للحرية و الضرورة، الفصل الثاني عشر كلام عن نظريات أخلاقية، في الفصل الثالث عشر تطرق الفيلسوف كومباري إلى موضوع النظريات السياسية و الاقتصادية و الأدبية، فرسائل أخلاقية و سياسية، و أخيرا و ليس آخر إجمال عام مركب من خلاصتين: الأولى قد تعلقت بشك دافيد هيوم و الثانية تناولت التأثير المرتقب لدافيد هيوم على الفلسفة المعاصرة.

أ- هيوم المفكر و الإنسان:

عاش دافيد هيوم في وسط عائلي و تربى في بيئة تعليمية لم تكن لتساعده البتة في تفتق و نبوغ هيوم الفلسفي مستقبلا، فالأسرة أذعنت للأعرف المجتمع السائدة، حيث لقنتها إياها والدته لوحدها، لأن والده قد فارق الحياة و ابنه لا يزال طفلا صغيرا،و الجامعة التي زاول دراسته بها قد خلت من أستاذ موجه يفتح الأفاق؛ ما جعل هيوم طالب العلم غير قادر من الإطلاع على مؤلفات معاصره جون لوك بالوجه الصحيح و الكافي، فلم يكن ليعرف و يطلع على أفكار لوك إلا من خلال كتاب واحد مختصر ابتداء، و لم تربطه به علاقة مباشرة مساعدة، إلا بعد انقضاء مرحلة الشباب، غير أن هذه العلاقة لم ترق بأي حال من الأحوال إلى درجة علاقة المعلم بالتلميذ. إنّ وضعا مثل هذا، وضع غير مساعد البتة على تفتق موهبة التفلسف و الكتابة الفلسفية؛ و في تقدير الفيلسوف كومباري أنّ هذه العوامل ينبغي التحري عنها في شخص هيوم ذاته، أيّ أنّ هذه العوامل لن تكون إلا عوامل ذاتية لا غير، لانعدام العوامل الخارجية أو قلْ ضعفها على أكبر تقدير. تكمن هذه العوامل في ميل و رغبة ملحة لدى هيوم في المعرفة الفلسفية لازمت الفيلسوف منذ نعومة أظافره ، ليتجسّد هذا الميل و الرغبة في حبه للقراءة و

الاطلاع بنهم، فغرف من معين شعراء أمثال الشاعر فيرجيل[1] و شيشرون[2] لدرجة أنّه و بسببها أصبح ذو رهافة في الذوق و دقة في العبارة، فالفيلسوف يرى أنّ جميع النّاس و بفضل التجربة يختلفون في الأذواق كما هم مختلفون في الآراء، و المعرفة الحاصلة لا تقتضي عقلا ألمعيا و لا معرفة بالعالم. و بطبيعة الحال فأولئك الذين اكتسبوا نظرة واسعة لهم دراية أكثر بالموضوع و هم على إطلاع بالحضارات القديمة، و متى ألصق بأحد وصف البربري، إنّما نوصفهم بذلك لابتعادهم عن ذوقنا و عن طريقة تفكيرنا[3] . الخاصيتان هاتان أعني رهافة الذوق و دقة العبارة هما في تقدير الفيلسوف كومباري خاصيتين تميزان كتابات هيوم،مكنتاه من أن يصر عميدا للأدب؛ و يذهب الفيلسوف كومباري إلى الاعتقاد بأن هيوم لو كان على إطلاع واسع بفلسفة الإغريق و تعمق في دراسة فلسفة أفلاطون، كما درس فلسفة باركلي، لتغيّرت و صححت اتجاهاته الامبيريقية، و عدم الإطلاع هذا قد يكون حدثا لصالح و خادما للحقيقة، فهيوم حينما كان شابا يافعا مرّ بأزمة عامة طالت البدن و النفس معا و في تقديري و بحسب اطلاعي على رسالة من هيوم إلى أحد الأطباء بعث إليه دون أن يذكر اسمه؛ فإنّ منشأ هذه الوعكة استمرت طويلة، منشأ نفسي في المقام الأوّل، و أهم الأعراض التي كان يشتكي منها الفيلسوف ظهور بقع على مستوى أظافره و هذا مؤشر على نقص حاد لفيتامين ج، ثم و بعد فترة من الزمن اشتكى من إفرازات فوق العادة للعاب، ليقع بعد ذلك في شرك الشره المرضي، فكان يلتهم الأكل التهاما، ظن في البداية أنّ حالته تعود إلى طبيعتها، و لكن يسوء وضعه لتسارع نبضات قلبه، فيتفاقم الحال عندما يبتلى بالغازات على مستوى البطن[4] . أزمة بثت الشك داخله و توهم أنّه مصاب بمرض عضال يمنعه من تحقيق طموحاته و مشاريعه و أمانيه بلوغ مقامات العلا و المجد، ما جعله يغيّر سكة حياته للمرة الثانية، في الأولى كان يتطلع أن

---

[1] - هو بوبليوس ورغيليوس مارو فرجيل و لد في 15 أكتوبر 70 ق م و توفي في 21 سبتمبر 19 ق م شاعر روماني صاحب القصيدة المشهورة الإلياذة.

[2] - هو ماركوس توليوس سيسرو كاتب و خطيب روماني ولد سنة 106 ق م، اغتيل في 07 ديسمبر 43 ق م صاحب إنتاج ضخم يعتبر مرجعا نموذجا للتعبير اللاتيني الكلاسيكي، اشتهر بخطبه القانونية و السياسية.

[3] - David Hume, la règle du goût, traduction anonyme révisé par Christophe salaiin, édition établie, annotée et postfacée par Christophe salaiin, édition mille et une nuits, octobre 2012. اقتباس شخصي و بتصرف.

1- Frédéric Brahami, savoir, mélancolie, scepticisme, la dépression du jeune Hume http // doi.org/10.4000/philosophique.140 اقتباس و ترجمة شخصيّة

يصير محاميا، و هذه الثانية كانت في رغبته الانتساب إلى مدرسة التجارة، و التي اعتبرت من قبله انتحارا أخلاقيا، لم يستسلم هيوم لظنونه فيقع فريسة لشكوكه، إنما و بعد زوال الغمة التي ألمت به، عاد و كله همّة و عزيمة إلى معترك الحياة، معتمدا على قواه الذاتية. ليسافر إلى فرنسا و نحن نعلم أن للسفر فوائد جمة، زار مدينة رامس و مدينة لافلاش فمكث هناك من سنة 1734 إلى غاية 1737 أنجز بهما كتابه " مبحث في الطبيعة البشرية "، أقفل راجعا بعد ذلك إلى وطنه. يلفت الفيلسوف كومباري انتباه القارئ إلى نقطة يراه أهلا لتستوقفنا إلى صغر سن هيوم عندما كتب كتابه ذاك، حيث لم يكن يبلغ حينئذ إلا سبعة و عشرين عاما فقط، و هذا عمر صغير بالنسبة للكتابة الفلسفية. و المثير للفضول أنّه قد كون تصور عام للكتاب قبل هذا العمر بكثير، و هذا أمر نادر، فديكارت لم يكتب كتابه العمدة إلا بعد مرور أربعين سنة، و كانط أدرك السن الستين عندما كتب كتابه العمدة. يعتبر كتاب هيوم " مبحث في الفاهمة البشرية " خلاصة عامة لفكره، كما هو الشأن بالنسبة لكتاب ديكارت " حديث الطريقة "، مع فرق واحد يسجل فرق يتمثل في أنّ جميع كتب ديكارت قد سارت وفق مسار أو حركة يسيّرها أو تنظمها مبادئ المنهج الديكارتي، بينما كتب دافيد هيوم جاءت مخففة و مخفية للنتائج المقلقلة التي توصل إليها الفيلسوف زمن الشباب. في مؤلف الشباب " مبحث في الطبيعة البشرية" يعمل هيوم على إظهار فكره و الإفراج عنه و قد توسّل الصّراحة و اعتمد النبرة العالية أسلوب، فضاهى بذلك النزعة البيرونية[1] ؛ إلا أنّه و بعد مرور مرحلة اليقينيات، تراجع عن أفكاره الأساسية التي ضمّها ذاك الكتاب، حتى وصل الأمر به في مرة من المرات الاعتراف إلى صديق – جيلبار ستوارت – في رسالة أرسلها له، أنّ الشّجاعة تخونه لكي يعيد قراءة كتابه " مبحث في الطبيعة البشرية" مجددا. يقينا منه أنّ حينئذ كان قد تسرّع في النتائج المتوصل إليها. و اشتكى للصديق تهجم الخصوم و تجريحهم له..

2- أصول فلسفة هيوم – الخصائص الأساسية لمنهجه - :

يؤكد الفيلسوف كومباري في مستهل الفصل الأوّل على أنّ هيوم، عالم نفس في المقام الأول، غير أنّ هذا لا يمنع من القول أنّ جهده الفكري قد انصب بالأساس على تحليل الوعي؛ فكل معرفة ممكنة تكمن بحسب هيوم حصرا في معرفة الطبيعة البشرية ليس إلا :" من الواضح أنّ

[1] - نسبة للفيلسوف الإغريقي بيرون المتوفى سنة 275 ق م ، الذي يعتبر مؤسس مذهب الشّك، لم يترك كتابات مثله مثل سقراط.

جميع العلوم .. لها علاقة بالطبيعة البشرية، حتى و إن بدا لنا علم من هذه العلوم مبتعد عنها، فالرياضيات و الفلسفة الطبيعية و الدين الطبيعي متعلق بشكل ما بعلم الإنسان"[1]

و لأنّه يجعل من الطبيعة البشرية مدارا للبحث و التقصي، فإنّ هيوم عنصرا فاعلا في تقاليد الفلسفية الإنكليزية؛ و التوصيف يصدق أكثر و يتجلى إن علمنا أنّ هيوم كان شغله الشاغل ملاحظة الظواهر النفسية – الروحية ؟ - و كان هذا ديدن الفلاسفة البريطانيين.. و لشدة اهتمام هؤلاء الفلاسفة بالظاهرة النفسية و كثرة انشغالهم بها ، صاروا أبطالا – إن صح هذا التعبير – في ميدان علم النفس فتفوقوا و علا كعبهم، و انقسموا في موضوعاته إلى حدّ ظهور تيارين يؤلفان ميدان علم النفس متضادين، متصارعين، تيار روحاني و آخر امبيريقي أو حسي رافض لكل مسعى ميتافيزيقي أثناء دراسة الظاهرة النفسية، مقتصرا على ملاحظة الظواهر الخارجية، ممتنعين عن دراسة الماهية و ما وصف بالجواني، معتبرين الجواهر و العلل كيانات خيالية. يتزامن ظهور التيار الثاني و صدور كتاب هيوم الموسوم ب :" مبحث في الطبيعة البشرية" سنة 173، فالفيلسوف الأول من غير منازع الذي ساق أفكاره بمقتضى المنهج الامبيريقي، و قد اتخذّ الملاحظة وسيلة بحث و تقصي، و إن كان هيوم يُشهد له السبق في هذا الميدان، إلا أنّ هذا لا ينبغي أن ينسينا تأثره بفلاسفة سبقوه، ساهموا هم أيضا في تشكيل أفكاره و تكوينها، و نضرب مثالا الفيلسوفين لوك و باركلي ؛ حتى و إن عمل هيوم حثيثا على إخفاء أثرهما، فمعظم نظرياته كانت مبثوثة على هيئة أفكار جنينية في كتب مل و باركلي.

أمّا ما تعلّق بالتيار العقلاني، فتأثيره كان جدّ فاعل في بريطانيا إبان القرن السابع عشر و بداية القرن الثامن، و فلاسفة أمثال رالف كادوارث[2] و شافتسبري[3] . و لكن و بعد ذلك أضحى التيار الحسيّ و مع مرور الوقت يكتسح الفضاء الفكري البريطاني و يستحوذ على الأولوية، و

---

[1] - David Hume, traité de la nature humaine, livre1 : de l'entendement, traduction de M. Philippe Folliot professeur de philosophie au lycée Ango à Dieppe en Normandie, dans le cadre de la collection : les classiques des sciences sociale site web : http:// classiques.uqac.ca/ p08. Version électronique. ترجمة شخصية

[2] - فيلسوف بريطاني ولد سنة 1617 و توفي يوم 26 جوان 1688 ، عضو المدرسة الأفلاطونية بجامعة كمبريدج من كتبه " النسق الحقيقي الفكري للعالم".

[3] - هو أنطونيو آشلي كوبر شافتسبري ولد يوم 26 فبراير 1671 و توفي يوم 04 فبراير 1713، فيلسوف و كاتب و رجل سياسة إنكليزي من مؤلفاته " مبحث في الحرية و الذكاء و السخرية".

يعتبر هوبز في نظر كومباري أوّل فيلسوف تأثر به هيوم، فهوبز أول فيلسوف حديث اقترح نظرة حول قوانين ترابط الأفكار و التي يعتبرها هيوم القوانين المؤسسة للفكر؛ و نظرة هيوم قد نجملها في النقاط الآتية:

أولا: اعتبار الأفكار ذات أصل حسي.

ثانيا: رفض فكرة لامادية الجواهر.

ثالثا: الشك المتصل بالعالم المادي.

رابعا: الاسمية المطلقة و اعتبار واقعا إلا واقع الأسماء.

خامسا: نقد الرياضيات.

و قبل التطرّق إلى أثر جون لوك يجد الفيلسوف كومباري مضطرا أوّلا إلى القول بأنّه من الصعب بما كان اختزال فلسفة السيد لوك ذائع الصيت في سطور معدودات، ففلسفته بالغة التعقيد في جوانب، و في جوانب أخرى متضاربة، و القواسم المشتركة بين نسقي لوك و هيوم بالإمكان تعيينها في :

أوّلا : ينطلق لوك في جميع أبحاثه من تحليل الفاهمة البشرية.

ثانيا : يرفض لوك أن تكون الأفكار فطرية، و المبادئ قبلية. و يُرجع جميع معارفنا إلى الحواس و التدبر – على القارئ أن تستوقفه لفظة "تدبر" و دلالتها غير الدقيقة في سياق النسق الحسيّ و أمام العين قرينة تؤكد على التضارب في فلسفة جون لوك، و الذي لم يكن دائم الانسجام في طروحاته، و الدليل على ذلك أنّه كان باستمرار في عملية تصويب لأفكاره و تصحيح لها، و المحتمل أن يعود سبب ذلك إلى التجاذب الفكري الذي عاشه ، بين ما تقتضيه الفلسفة الحسية و يقرّه الحسّ المشترك أو الصواب العقلي- le bon- sens[1]

---

[1] - يجد المترجم العربي على الدوام نفسه في حيرة من أمره، و هو ينقل العبارة الأجنبية فيعربها إلى اللغة العربية؛ و في هذه الأثناء نحن أمام وضع يقتضي منا الفصل في الاختيار بين لفظ عقل أو صواب أو حتى ربما الفطرة السليمة نقلا و ترجمة للعبارة الواردة - في مؤلف كومباري الذي نحن بصدد نقله و تقديمه و قراءته – le bon sens إلى اللغة العربية، و هي عبارة قد استهل بها ديكارت كتابه العمدة " مقالة الطّريقة" أو " حديث الطريقة " أو "مقال عن المنهج"، و بالعودة إلى مترجمين اثنين هما الدكتور الخضيري و الدكتور الشارني ترجما الكتاب، فإن الأول فضّل استعمال لفظ العقل ترجمة للعبارة تلك، و الثاني رأى أنّ اللفظ الأنسب هو الصّواب، و لكل منهما مسوغاته، حيث الخضيري يذهب إلى الاعتقاد أنّ ديكارت : " الذي استعمل bon sens و قصد به القوة اللازمة لإجادة الحكم أي لتمييز الحق من الباطل في النظري و العملي، و للعقل عملان فكريان أساسيان و هما البداهة intuition – لست أدري هل ينبغي أن نذكّر أن ترجمة intuition إلى بداهة لم نعتد عليها، فالمشهور و الشائع أنّ هذا اللفظ

الخاصيتان هاتان المميزان لفلسفة لوك، قد تجسّدا منهجا و مبدأ في كتاب هيوم " مبحث في الفاهمة البشرية".

في السياق التجاذبي هذا، كان على هيوم العمل على الذهاب بالتطلعات التي كان يرنو إليها لوك إلى مداها الحسيّ، و من تجليات هذا العمل تجريح كل فكرة ذات منشأ عقلاني، و هذا التخليص و التخلية التي طالت فلسفة لوك قد نجملها في الآتي:

أولا: و إن بدت نظرية لوك حول المعرفة غير قابلة بفكرة واقعية الجوهر، حيث يرى لوك أنّ لا الحواس، و لا التدبر، بقدرين على الإحاطة بالجوهر، فإنّه و على الرغم من ذلك يعطي انطباعا بأننا على معرفة ب:" أنا" يبدو و كأنّه الحامل أو القاعدة substratum للأشياء. و هذا ما دفع بهيوم إلى رفض الرفض القاطع لفكرة الجوهر، مع الاحتفاظ بطبيعة الحال بمبادئ لوك.

ثانيا: بخصوص وجود الأشياء الحسيّة من عدمه، فإنّ لوك أميل إلى الشّك في وجودها، فالحواس بحسب تصوره غير قادرة على ضمان واقعية العالم الخارجي بالقدر الكافي، و بناء عليه، ينبغي الاستنجاد بمبدأ عام قصد تأويل الإحساس. و هذا المبدأ لا علم للوك به، و حتى

يترجم عادة إلى لفظ حدس، إلا أن الدكتور الخضيري لا يشاطر و لا يقبل هذا الشائع و بطبيعة الحال للدكتور مسوغات يذكرها في مقدمة الكتاب.. - (راجع القاعدة الثالثة من القواعد لقيادة العقل .. و هنا يجدر بالذكر أنّه وجد بين أوراق ديكارت بعد وفاته كُتيب عنوانه درس العقل studium bonae mentis و قد نقل هذا العنوان إلى الفرنسوية مترجم حياته باييه كما يأتي l'étude du bon sens ou l'art de bien comprendre أي درس العقل أو فن إجادة الفهم و يرجع أنّ تلك الكتابة مشروع المقال عن المنهج. [رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة الدكتور محمود محمد الخضيري ، مراجعة و تقديم الدكتور محمد مصطفى حلمي، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، الطبعة الثانية،القاهرة،مصر،ص 109.]" و لكن الدكتور عمر الشارني المترجم الثاني يخالف الدكتور الخضري الرأي، و يرى الأنسب ترجمة للعبارة لفظ " صواب"، فالعقل :" قراءة قد تستقيم معنى و لكن المؤلف يستعمل أيضا لفظ raison. و إن كانت الكلمتان متقاربين، فإنّه لابد من التمييز بينهما ما دام المؤلف قد فعل ذلك. و "الصواب" من "صوّب" أو أحكم بالصّواب و "أصاب" .. و الصّواب ضد الخطأ و هو المستقيم و هو الحق، و يليه "الصّائب" و "المصيب" و يتقابلان مع الخاطئ و المخطئ، و تعني العبارة، و هي فرنسية الأصل المقدرة على الحكم و على الحكم الجيد، أو على التّمييز بين الحقيقة و الخطأ، أو بين الحق و الباطل. و يتضمّن معنى التّثبت و التّحريّ و التّظر الشّديد. و هي كلّها أفعال تعني الحركة المتّصلة بموضوع قد نبلغه، كما أنّه قد لا نبلغه، كالرماية قد تصيب المرمى و قد تخطئه" [رينيه ديكارت، حديث الطّريقة، ترجمة و شرح و تعليق، الدكتور عمر الشارني، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى. بيروت. تموز 2008.ص 41.] و لا نعلم ما موقف المترجم الثالث الدكتور جميل صليبا من المسألة.

يخرج من هذا الإحراج الذي أوقع نفسه فيه يستند على ما يدعوه ب :" البداهة الحسية"؛ ما كان على هيوم إلا إزاحة هذه المراوغة اللغوية أو المواربة غير المنسجمة و النسق الحسيّ.

ثالثا: نفي لوك لوجود الجواهر، و تأكيده على أنّ ماهية الأشياء أمر غير قابل للاستجلاء، و لكن من جهة أخرى، نراه و بمقتضى حركة تفكريّة متذبذبة يعترف بوجود صورة مشوشة المعالم للمادة، ابتداء يميّز في المادة بين خصائصها الأولى و خصائصها المشتقة، الأولى مباشرة لتأثيرها على الحواس، و الثانية تلك المشتقة، لا يتم التعرّف عليها إلا من خلال ما تتركه من آثار على الأجسام الخارجية، المكونة للمادة حقا؛ بالنسبة لهيوم فإنّ تمييزا مثل هذا لا يصل إلى مستوى المتانة الكافية، فتمييز لوك هش للغاية.

رابعا: عندما يتناول لوك مسألة الفكر، تأتي إحاطته و قد اشتملها التناقض..

الأنساق الفلسفية الحديثة2

الأهداف : التعرّف على التحولات التي رافقت الأنساق الفلسفية الكبرى.

- التمكن من إدراك الفرق بين مختلف أنساق الفلسفية الغربيّة
- تحصيل مقدرة بناء معارف موضوعية حول تاريخ الفلسفة الغربية
- المعارف المسبقة : الاطلاع على الفلسفات القديمة و الفلسفات الوسيطية.

محتوى المادة :

أ- المثالية النقدية "كانط "

ب- صغار المثالية – الذاتية (فيخته ، شيلنغ)

ت- المثالية المطلقة : (هيغل)

مجريات الدرس :

1- المثالية النقدية : "كانط " تمثل فلسفة كانط آخر محاولة لحلّ المشكلات التي شغلت الفلاسفة في القرنين السابع عشر و الثامن عشر. أرسى كانط القاعدة الفلسفية للعلم الحديث و قدّم حلا للعلاقة بين التصور الجديد للطبيعة ، و بين التصورات القديمة للميتافيزيقا و الأخلاق و الدين ... و سيّج القدرة على المعرفة الإنسانية بموانع و حدود، على صّعيد الطّبيعة و ما وراء الطّبيعة ، و بسط مفهوما جديدا لمقصود الميتافيزيقا ، حيث انتقل بها من كونها من المرتبة الأولى للعالم اللامادي ، إلى دراسة ذات طابع إنساني تُقارب أيّ موضوع مهما

كانت ماهيته. و بغية تسليط الضوء على فلسفة كانط و إظهارها بصورة غير معهود، و إبراز الجدّة التي اصطبغت بها أطروحاتها ، نقترح في هذه السانحة قراءة الفيلسوف " جيل دولوز " ، قراءة نرى أنها تأتي بالجديد ، فتضيء مناطق في فلسفة "كانط " لم تكن لتعرف لولا هذه القراءة الخاصّة و تمتاز بمميزات و خصائص يقل نظيرها في قراءات أخرى. أهم هذه الخصائص أنّها قراءة جادة تتعامل مع الإنتاج الفلسفي في كثير من الأحيان بصرامة و لطف في آن معا تقدّر المجهود و تُبين عن أوجه السخاء و الإبداع الذي يعتريه. و قد أشار " دولوز " في كتابه " اختلاف و تكرار " على ضرورة أن يجدد الفيلسوف من أساليب تعبيره ، بمواجهتها لما يحدث في بعض الميادين كالمسرح و السينما. " جيل دولوز " بصفته دارس لتاريخ الفلسفة ، قد كتب كتبا في هذا الميدان ، و من بين هذه الكتب كتاب خصّه لفلسفة كانط النقدية ، كتاب في نظر الأستاذ " دانيال أجيراد " مثله مثل الكتب الأخرى التي تناول الفيلسوف فلسفة فلاسفة على غرار الفيلسوف " دفييد هيوم " ، يعتبر تمارينا لا نكاد أن نميّز فيه بين صوته و صوت هذا الفيلسوف أي كانط، قاصدا من وراء ذلك إلى بناء مناطق، يتعذر علينا نحن القراء ، التمييز بين أفكاره و أفكار الذي يكتب عنه و يعلّق عليه ، كلّ هذا بدافع الشراكة أو قل التورط.[1]

في مقدمة كتاب "جيل دولوز " حول فلسفة كانط النقدية، يتطرق الفيلسوف إلى مقصود العقل بحسب كانط، و لن يكون لهذا المفهوم المتسع في الذكر، إلا حينما يُحدّد معه المقصود بالفلسفة، و كأني بدولوز يرغب في القول أنّه من غير المتحقق تعريف العقل إلا في سياق الحديث عن الفلسفة و التعرّف عليها، و بالاستعانة بما جاء في كتاب "كانط " العمدة و على وجه مخصوص إلى فقراته الأولى، يتبيّن لنا بالفعل أنّه يستهل حديثه عن الفلسفة (الميتافيزيقا) و عن مدى محدودية قدرة العقل البشري حيث يقول :" و قد كان زمن كانت تُدعى – يقصد الفلسفة – فيه ملكة كلّ العلوم . و لو

[1] Daniel Adjerad, Deleuze, collection dirigée par Adelino Braz, Ellipses édition, Paris. France, www.editions-ellipses.fr.

حسبنا القصد بمثابة الفعل لكانت تستحق رتبة الشرف هذه بفضل الأهمية الفريدة التي لموضوعها لكن موضة العصر الآن تريد أن لا نظهر لها إلا الازدراء"[1] أمّا تعريف الفلسفة بحسب تصور كانط و بمقتضى ترجمة أو تعريب الأستاذ موسى وهبه فهي :" علم علاقة جميع المعارف و قد ارتبطت بالغايات الأساسية للعقل البشري"[2] أمّا الأستاذ أسامة الحاج فعرّب الفقرة المتضمنة لمفهوم الفلسفة و الواردة في مؤلف "دولوز"حول فلسفة كانط النقدية :" علم العلاقة بين كل المعارف و الغايات الجوهرية للعقل البشري "[3] و يزيد كانط على هذا التعريف، تعريفا آخر، قد ثبّته في مستوى غير ذاك المستوى الذي وضع فيه التعريف الأوّل :" الحبّ المختبر من قبل الكائن للغايات القصوى للعقل البشري" التعريف هذا قمنا نحن بتعريبه، مع الإشارة أنّ هناك بعض الاختلاف بينه و بين التعريب المقدم من قبل الأستاذ أسامة الحاج، مع ملاحظة أننا لن نفتح باب سؤال الترجمة، لأنه، إن فُتح سيطول المقام فيه، و هذا ليس قصدنا و لا ما نرجو بلوغه. لكن نتساءل لماذا كانط لم يقتصر على تعريف واحد للفلسفة؟ و لماذا دولوز من جانبه لم يكتف ببسط تعريف واحد، حتى و إن علم بوجود تعريفين على الأقل لمصطلح فلسفة؟ هل هناك داعي أو دواعي دفعته إلى ذلك، أو مسوغات حرّكته كي يذكر التعريفين ؟ من الدواعي التي قد تدفع فيلسوف مثل كانط إلى ذكر التعريفين، و من ثمة تُلزم القارئ "دولوز" على بسطها، هو إبراز فالتأكيد على أهمية و قيمة الفلسفة في سياق الازدراء التي عانت منه زمن "كانط" و دورها المحوري في تشييد المعارف على أسس صحيحة و متينة.

استزادة في الإفهام و استجابة لمنطق يُسيّر مؤلف " دولوز " يعرض إلى مقصود العقل بحسب التيار الإمبريقي، فينطلق في مسعاه بنفي أن يكون العقل ملكة أغراض عند أمثال الفيلسوف "هيوم"؛ فأصالة العقل عند ممثلي

---

[1] - عمانؤيل كنط،نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبه، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص25.

[2] - عمانؤيل كنط، المرجع السّابق، ص25.

[3] - جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،ط1. 1997. لبنان.ص05.

هذا التيار في تحقيق أغراض (منافع) مشتركة للإنسان و الحيوان، فالعقل ملكة توضيب أو تنسيق -agencement-[1] وسائل غير مباشرة. بينما الثقافة هي مكيدة ، حساب و موارية. ما نلاحظه أن الفهم الإمبريقي يضع مقابلة العقل و الثقافة، فيحيل إلى العقل وظيفة " تقنية " ، و يلحق بالثقافة الدور العملي ذي الصبغة الاجتماعية، من دون إغفال أن للوسائل الأصلية أثار على الأغراض – ينبغي الإشارة إلى أنّ دولوز أثناء بسطه للموقف الإمبريقي، لم ير مناسبا إفادتنا بدلالة الوسائل غير المباشرة و الوسائل الأصلية. ذكر المقصود بالعقل من وجهة نظر إمبيريقية تتضح وظيفته، عندما يؤكد "كانط" على وجود أغراض للثقافة، و أخرى خاصّة بالعقل، و من ثمّة فإنّه هو أيضا يُميّز من حيث الوجود بين العقل و الثقافة، مردفا أنّ هناك أغراض ثقافية موصولة بالعقل هي نهائية إطلاقا. و لغرض التبيان يعود دولوز إلى قول كانط الوارد في كتابه " نقد ملكة الحكم " بحوزتنا ترجمات ثلاث للقول، الأولى :" إنّ الغاية الأخيرة هي غاية بحيث لا تستطيع أن تكفي لانجازها و لتحقيقها بالتوافق مع الفكرة، لأنّ هذه الغاية مطلقة" – ترجمة أسامة الحاج – الثانية :"إنّ الغاية النهائية لا يمكن أن تكون غاية تكفي لإنتاجها وفق فكرتها لأنها غير مشروطة"[2] – ترجمة سعيد الغانمي - [اعتمد المترجم سعيد الغانمي على ترجمات خمس باللغة الانجليزية لمؤلف كانط. و أثناء التقديم لترجمته يشير إلى وجود متوفرة قام بها الأستاذ غانم هنا، منوها بالعمل، و لكن ملاحظا أنّ ترجمة الأستاذ إلى وجود :" خلل اصطلاحي يتخلل الكتاب بكامله، فقد رأينا أن كانط يميز بين الغرضية، التي يرى أنها إمكان استخدام الأشياء لتحقيق أغراض كجزء من ملكة الحكم التأملية، بينما

---

[1] - التنسيق أو التوليف هو مجموعة فرادات .. أو التئام للفكرة التي لنا عن الشيء ذاته و حقول الممكنات التي تنشأ بين وعينا و الشيء .. و لهذا فإن التوليف يتموقع دائما في حركة تحول و يخلق استباحات حمى و إعادة تأليف حمى. عن : | cybercultures - studies CCC 09-10 | vocabulaire de Deleuze | NP | 16/11/09 | p.4/4

[2] - إمانويل كانط، نقد ملكة الحكم ، ترجمة سعيد الغانمي ، منشورات الجمل ، ط1 ، 2009، لبنان ، ص،ص 375،376.

هو يعترض بقوة على الغائية، التي ترى إمكان تصور غايات توجد لتحقيقها الأشياء. غير أن هذا التمييز يغيب غيابا مطلقا في الترجمة العربية. و السبب أن الترجمة نقلت كلا المصطلحين بكلمة (الغائية) فصار يبدو للقارئ أنه يقرأ وصفا حياديا للغائية في الجزء الأول من الكتاب، (و هو في الحقيقة وصف للغرضية) و يقرأ انتقادا لها في الجزء الثاني."[1] لا يتوقف الأستاذ سعيد الغانمي في تجريحه، بل يجرّح أيضا في ترجمة الأستاذ أسامة الحاج لمؤلف دولوز المتعلق بفلسفة كانط النقدية، و التي لم يميّز فيها بين المصطلحين المذكورين أعلاه، من جانبنا أن نقول أنّ الأستاذ غانم هنا، و استنادا إلى مقدمة الكتاب أشار بوضوح إلى أنه قام بالتعريب، بالاعتماد على الطبعة الثانية -باللغة الألمانية – بينما الأستاذ الغانمي اعتمد على الترجمة الانجليزية كما ذكر هو نفسه. الأستاذ أسامة الحاج كان كلما شاهد كلمة " finalité " واردة في الأصل عرّبها إلى الغائية، و متى شاهد كلمة " intérêt " عرّبها بمصالح، و عرّب كلمة" fin" بالغاية أيضا، و أظن أنّ الأستاذ الغانمي كان يقصد هذا، كل هذا، يدلل على أنّ عملية الترجمة ليست بالعملية الهينة، و التي يقدر القيام بها أيّ الشخص قد تمكّن من ناصية اللغتين، بل المهمة أكبر من ذلك بكثير. و أي مسعى في هذا الاتجاه يعتريه ما يعتريه. و لكن وجب التنويه أن ترجمة إنتاج كانط الفكري يستدعي تضافر للمجهود اللغوي و الفلسفي .. نظرا لصعوبة و غموض في الكثير من الأحيان أسلوب كانط و طريقته في الكتابة، و هذا ما يعاني منه مترجمون آخرون غير عرب..] الترجمة الثالثة: " إنّ الغاية الأخيرة. غاية ليس بمقدور الطبيعة أن تكفي لتحقيقها وفق فكرتها لأن [هذه الغاية] غير مشروطة بشرط"[2]. يعتمد كانط على ثلاثة أنواع من الحجج للتدليل على وجاهة ما يذهب إليه؛ النوع الأول : حجة القيمة منطوقها إن كان العقل لا يستخدم إلا لإنجاز غايات الطبيعة، فما الفرق حينئذ بين العقل بوصفه قيمة سامية و الحيوانية (من المؤكد ستكون له [العقل] منفعة و استعمالات طبيعية، غير أن وجوده مرتبط بغرض أرفع من

---

[1] - إمانويل كانط، المرجع السابق، ص28.

2 - إمانويل كنْت،نقد ملكة الحكم ، ترجمة د. غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، ط1 ، لبنان 2005، ص 397.

المصدر الذي يستمد منه قيمته) . النوع الثاني : حجة الخُلف منطوقها إنْ كانت قد أرادت تحقيق أغراضها الخاصة، في كائن عاقل كان حريّ بها ،في هذه الحالة، أن لا تثق بالجانب العاقل فيه و في المقابل كان الأجدى بها العودة إلى الغريزة أتعلق الأمر بالوسائل كما هو كذلك بالنسبة للغرض. النوع الثالث : حجة التنازع مفادها إن كان العقل غير ملكة وسائل، سيصعب علينا إدراك كيف لنوعين من الأغراض التعارض في الإنسان، على اعتباره نوعا حيوانيا و باعتباره نوعا أخلاقيا، مثال ذلك لن أكون طفلا من وجهة نظر الطبيعة، إن كنت قادرا على الإنجاب؛ و لكن سأظل طفلا من وجهة نظر الثقافة، ما لم أكن حائزا على حرفة، و عليّ حينئذ أن أتعلم.

يدخل "دولوز" على الخط مع ورود الفقرة الخامسة، موقف التيار العقلاني بشأن العقل و ما ينجزه، و لكن و قبل الإفصاح و نشر الموقف، يكون حريّ بنا الرجوع إلى الوراء قصد تشكيل فكرة جامعة لما ذُكر لغاية الآن، فدولوز و هو يبين أو كما يقال يميط اللثام عن الموضوع، أعني فلسفة كانط النقدية، حدّد أوّلا المقصود بالعقل، بحسب كانط، و عوض أن يكتفي بتعريف واحد، فضّل تقديم تعريفين مختلفين من حيث المستوى، مستوى أوّل ندعوه المستوى الخارجي، الذي يُعنى بالوظيفة التي تلحق بالعقل،المستوى الثاني ندعوه المستوى الداخلي، وظيفته الكشف عن العنصر العاطفي. فالتعقل يجعل شعور الحب وارد يرنو السمو و العلا. و لكي يعطي زخما لرؤية كانط، مادامت فلسفته هي محطّ النظر و التحليل، يبسط بمقدار موقف التيار الأمبيريقي (التجريبي) حول مفهوم العقل، و بتسليطه الضوء على موقف هذا التيار، يسعى دولوز و بطريقة غير مباشرة إلى توضيح و تفصيل أكثر لما جاء به كانط و تعزيز له، و ما يؤكد هذا، أنّه بعرض موقف التيار التجريبي، يعود دولوز فاسحا المجال لكانط مجددا لنقد موقف أصحاب التيار التجريبي. و تحديدا موقفهم حول العقل و الثقافة، منوها في هذا الصدد أنّ الأغراض الثقافية للعقل و حسب هي الجديرة بحمل صفة الأغراض النهائية. و جاءت الفقرة الموالية، فقرة حجاجية تُمكّن لما قيل أعلاه.

كما فعل دولوز مع التيار التجريبي، يُقْدِم على الأمر نفسه مع التيار العقلاني، فبالنسبة للعقلانيين، الكائن العاقل يمضي قدما نحو تجسيد أغراض عقلية خاصّة، و ما يتم إدراكه بواسطة العقل على أنّه غرض، هو شيء خارجي و سامي. و بعرض دولوز لموقف التيار العقلاني حول المسائل ذاتها التي طرحت على التيار التجريبي، يتبيّن للقارئ أن لا فرق في طرح و الرؤية بين التيارين في نظر كانط ، و بمقتضى قراءة دولوز بالطبع. إنّ غرضا ما هو تمثل يحدّد الإرادة. فمدام التمثل شيء خارج الإرادة، فلا يهم كثيرا إن كان حسيّا أو عقليا. في مطلق الأحوال، التمثل لا يحدد الاقتدار، إلا بالرضا المرتبط بالموضوع الذي يمثله، اعتبرناه تمثلا حسيّا أو عقليا:" الشعور بالمتعة الذي به يُشكّل المبدأ المُحدد للإرادة.. هو من نوع واحد، ليس فقط لكونه لا يمكن أن يُعرف إطلاقا إلاّ بصورة تجريبية، بل كذلك بوصفه يتناول قوة حيوية واحدة"[1] أما قول كانط هذا – المقيّد في نقد العقل العملي - و الوارد في كتاب دولوز، المترجم من قبل الأستاذ أسامة الحاج. فيعرّبه الأستاذ غانم هنا – مترجم مؤلف كانط نقد العقل العملي – كما يلي :" إنّ الشعور باللذة الذي به فقط تكون تلك في حقيقة الأمر السبب المعيّن للإرادة ... هو مع ذلك من النوع الواحد عينه، ليس فقط من حيث يمكن التعرّف عليه دائما تجريبيا فقط، بل أيضا من حيث أنّه يؤثر على القوة الحيوية الواحدة عينها"[2].

يُشهر كانط نقده في وجه العقلانية، عندما يصرح بأنّ الأغراض الساميّة ليست فقط غايات العقل، إنّما عندما يؤكد العقل على هذه الأغراض، إنّما يؤكد نفسه. ففي حالة أغراض العقل، العقل يرى نفسه غرضا. و عليه يخلص دولوز بوجود مصالح – منافع – تُقرن بالعقل، في النسخة الأصلية لكتاب دولوز، فلسفة كانط النقدية، كتبت لفظة – intérêts – بشكل مغاير، و نحن نتساءل هل هناك سبب وجيه دفع بدولوز اعتماد هذه الكيفية في

---

[1] -جيل دولوز، المرجع السّابق، ص 07 . هذه الفقرة أخذها دولوز من كتاب كانط نقد العقل العملي استزادة للتوضيح و التفسير.

[2] - إمانويل كنت، نقد العقل العملي، ترجمة غانم هنا الشاعر، المنظمة العربية للترجمة، ط1. لبنان. بيروت. تشرين الأول (أكتوبر) 2008، ص 73.

الكتابة، ما دلالة كلمة مصالح كلما اقترنت بالعقل، و هل معناها هو ذاته المعنى المتعارف المعهود، أم المعنى مختلف، الأمر الذي يرقى إلى درجة اليقين أنّ جيل دولوز بعد ذكره للكلمة، يكشف على أنها مطابقة للأغراض، ما دام يعترف بأنّ المصالح أو الأغراض الملحقة بالعقل، لا مسوغ لها خارج العقل. في رأي دولوز كانط يرفض مُقدما القرارات الأمبيريقية و المحاكمات الدينية و قول كانط الوارد في نقد العقل المحض، يدلل على ذلك. يعرّب الأستاذ أسامة الحاج ما جاء حجة في سياق الذكر على هذا المنوال :" إنّ كلّ المفاهيم بل كلّ المسائل التي يقترحها علينا العقل الخالص، لا تكمن في التجربة بل في العقل .. إن العقل هو الذي ولّد، وحده، هذه الأفكار في أحشائه و هو ملزم إذًا ببيان قيمتها أو بطلانها"[1] . و الأستاذ موسى وهبة مترجم كتاب كانط نقد العقل المحض، يقترح الترجمة التالية :" ذلك أنّ كلّ الأفاهيم، بل كلّ الأسئلة التي يقترحها علينا العقل المحض، لا تُقيم، إنْ صحّ القول، في التجربة بل هي بدورها في العقل و حسب... لأنّ العقل هو الذي ولّد هذه الأفكار من داخله، و عليه بالتالي أن يُبيّن مصداقيتها أو ترائيها الديالكتيكي"[2] . توجد ترجمة عربية ثانية للكتاب نفسه، للأستاذ غانم هنا، ترجمة الفقرة أعلاه بهذا الشكل :" ذاك أنّ كلّ المفاهيم و حتى كلّ الأسئلة التي يطرحها علينا العقل المحض ليست متضمنة نوعا ما في التجربة بل فقط، هي في العقل بدورها... و في حقيقة الأمر العقل وحده، في داخله، ينتج لنفسه هذه الأفكار التي يطالب هو نفسه بأن يُقدّم حسابا عن صلاحيتها أو عن ظاهرها الجدلي"[3].على القارئ بعد هذا العرض للترجمات الثلاث استخلاص النتائج التي يراها مناسبة، -ينبغي التنويه على أنّ الترجمات الفرنسية للكتاب نفسه على الأقل الترجمتين التي بحوزتنا ليست متطابقة تماما، بل هناك بعض الاختلافات على مستوى اختيار الكلمات و على المستوى النحوي،

---

[1] - جيل دولوز، المرجع السّابق، ص 08.

[2] - عمانؤيل كنط،نقد العقل المحض، المرجع السّابق، ص368.

[3] - إمانويل كَنْت، نقد العقل المحض، ترجمة غانم هنا، مراجعة فتحي المسكيني، المنظمة العربيّة للترجمة، الطبعة الأولى،لبنان،2013، ص 749.

بخصوص الفقرة المقيّدة أعلاه- ما قد يدرك أن كانط يؤكل للعقل وظيفة نقده هو في حدّ ذاته، بمعنى آخر أن العقل في لحظة من اللحظات أيقن بضرورة القيام بعمل موجه لذاته، لكي يدرك نفسه الإدراك الصائب أو المناسب، و متى أنجز هذا العمل، يتمكن حينئذ من مواجهة العالم الخارجي عقليا، عالم الأشياء الخارجية. و باعتماد هذا السبيل أو المنهج، تُحدد الطبيعة الحقيقية لمصالح أو أغراض العقل. و الوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الأغراض.

- ينتقل "دولوز" بعد هذا العرض إلى بسط الدلالة الأولى لكلمة ملكة بحسب كانط، فهي أولا عنده و كما يبدو لي، شيء ثابت أو ساكن، بينما التصور أو التمثل يحوز على طبيعة متحركة، تسمح بانبلاج دلالة الملكة المتغيّرة، بتغيّر أنواع العلاقات، و عليه، هناك ملكة فكريّة، يُجسدها تمثل، قد ارتبط بموضوع من وجهة نظر المطابقة، و هذا ما يُدعى ببساطة ملكة المعرفة. في المستوى الثاني يكون التمثل في علاقة عليّة مع موضوعه، و هذا ما يدعى بملكة الترغيب أو الإرغاب، و التي بفعل تمثلاتها تكون علة لواقع موضوعات تمثلاتها... في المستوى الثالث و الأخير حيث يكون التمثل في علاقة مع الذات، حينئذ نتكلم عن ملكة الشعور باللذة و الألم. بالنسبة "لكانط" و بمقتضى قراءة "دولوز"، فإنّ السؤال الذي ينبغي طرحه، ليس هل هناك لذة دون رغبة أو رغبة دون لذة، إنّما إن كانت هذه الملكات كل على حدا و كما هي معرفة ابتداء قادرة على بلوغ شكل أعلى؛ و تبلغ ملكة ما الشكل الأعلى متى تهيأ لها داخليا قانونا مُحرّكا، حتى و إن صدر هذا القانون عن علاقة ضرورية مع واحدة من بين الملكتين، و ببلوغ الملكة الواحدة الشكل الأعلى تحقق لها استقلالا. و كتب "كانط" الثلاثة تتصدى للأسئلة الثلاث: نقد العقل المحض – هل توجد ملكة معرفة عليا؟- نقد العقل العملي – هل توجد ملكة ترغيب عليا؟- نقد ملكة الحكم – هل يوجد شكل أعلى للذة و الألم؟ [لأمد طويل اعتقد "كانط" بعدم تحقق الإمكانية الثالثة] .